أنطونيو غرامشي

أكره اللامبالين

ترجمة
مينا شحاتة

تقديم وتحرير ومراجعة
محمّد أيت حنّا

منشورات تكوين | تساؤلات
TAKWEEN PUBLISHING

المحتويات

تقديم: ضدّ اللامبالاة..... ٩

I

بادئ ذي بدء

اللامبالون..... ٢٣

بلادة السّاسة (حقيقة تبدو مفارَقةً)..... ٢٩

تشويشٌ على معنى شائع (الدّيماغوجية)..... ٣٥

الرّعاية ليست هبةً إنّها حقٌّ (التّطبيب)..... ٣٩

عمّال فيات (رجالٌ من لحمٍ ودم)..... ٤٣

II

السّياسة والسّاسة

ملاحظات من أجل المستقبل (هوامش)..... ٤٩

كل شيء على ما يرام (سَحَرة ومَسحورون) ٥٩
لا تسامح مع العبث (الصّارِم المتسامح، والمتسامح المتهاون) ... ٦٣

III

تعليم الإيطاليّين

امتيازات المدارس الخاصة (من أجل حريّة المدارس وحريّة أن نكون حميرًا) ٦٩
النساء والفرسان والغراميات (طبائع/ شخصيّاتٌ إيطالية)..... ٧٥
مهمّة أخلاقية (الأسرة)..... ٨١
المعرفة والنميمة (الحداثة)..... ٨٧
الحريّة والقانون..... ٩١
واجباتُ قاض (دفاعاً عن بلاطس البنطي)..... ٩٥
يسوع وملايين البشر (أفول أسطورة) ٩٩
التّاريخ دائماً معاصرٌ (اللحية والشارة).....١٠٣
الحريّة والشّطط (الردَّة الإيطاليّة).....١٠٧
رأسمالية منفلتة (وجهة نظرنا).....١١١

IV

آفات الدّولة الإيطاليّة

ضدّ البيروقراطية (في مديح بطلٍ) ١١٧

بيروقراطيو الدّولة (ضمير الرّقباء) ١٢١

الانبعاث واتّحاد إيطاليا (الماضي والحاضر) ١٢٩

VI

ضدَّ الحرب

محترفو الحرب (نداء الحوريات) ١٤١

الكذب والاستسلام (الحرب والمستقبل) ١٥١

ينبغي أن نُغيّر أنفسنا (قراءاتٌ) ١٥٧

كيف تتغيّر اللّغة (مصائرُ الكلمات) ١٦٣

تقديم

ضدّ اللامبالاة

«كلّ شيءٍ يحدث، لا يحدث فقط بسبب الذين يَفعلون، بل أيضاً بسبب الذين يُفضّلون ألّا يفعلوا شيئًا».

بهذا الإعلان الغاضب، يبدأ أنطونيو غرامشي مقاله الشهير «أكره اللامبالين»، الذي اختير أن يكون عنوانًا لهذا الكتاب. وليس ذلك من باب التمثيل أو التعريف فحسب، بل لأنّ هذه الجملة تختزن في ظاهرها صيحةَ غضب، وفي باطنها رؤيةً كاملةً للعالم: رؤيةً أخلاقيّةً، لغويّةً، تاريخيّةً، تقوم على أن ما يُسمّى «واقعًا» ليس معطًى طبيعيًا أو قَدَريًا، بل هو نتيجةُ أفعالٍ أو لا أفعال؛ أي نتيجة ما يُنتَج وما يُهمَل، ما يُقال وما يُسكت عنه، ما يُصاغ وما يُترك سائغًا لأهواء القوّة.

إنّ اللامبالاة، بالنّسبة إلى غرامشي، ليست مجرّد موقف نفسيّ سلبيّ، بل هي آفةٌ مدنيّةٌ، وخيانة وجوديّة. إنّها المجالُ الرمادي الذي تُصنع فيه أسوأ الخيارات السياسيّة دون مقاومة، الحيّزُ الذي

يُخلي فيه الوعي مكانَه للعادة، وتنسحب فيه الكلمات النزيهة، لتترك الساحة لشعاراتٍ جوفاء أو متواطئة.

حين نعيد اليوم قراءة مقالات غرامشي القصيرة، التي كُتبت في لحظةٍ هائجة بين سنتي ١٩١٦ و١٩١٨، لا نعود إليها بوصفها آثارًا لنضالٍ ماضٍ، بل بوصفها محاولاتٍ شاقّة للتفكير داخل الزمن، لفهم الكيفية التي يُصنَع بها الواقعُ، ويُعاد إنتاجه يومياً، ولطرح سؤالٍ خطير: لماذا نرضى بهذا الواقع؟ ومن الذي حدّد القاموس، ووزّع الأدوار، وقرّر من يتكلّم باسمِ من؟

في هذا الكتاب لا نصاحبُ غرامشي السّجن، بل غرامشي التكوين، غرامشي الذي لم يصمت بعدُ كي يكتب دفاترَ تأمّلاته، بل ما يزال يكتب وسط الضجيج، وسط الانكسارات، وسط شعورٍ شبه يوميّ بالفشل، ويفعل ذلك بلغةٍ لا تتعالى على اللّغة، بل تحاول أن تُمسك بالشيء في لحظة ولادتِه، أو لحظة انفجاره. وإن كان قارئ الكتاب لا يعدم أن يصيد فيه بعض التّنظيرات المفيدة، إلّا أنّ غرامشي أساساً هنا ليس بالمُنظِّرَ، بل المنقّب؛ وهو لا يبحث عن الذهب، بل عن اسمٍ جديدٍ لما يراه. اسمٍ لا يكون مهادنًا، ولا متواطئًا، ولا مكرورًا. ولهذا، فإنّ كُرهه للّامبالاة ليس نَفَسًا أخلاقيًا موتورًا فحسب، بل هو الشرط الضروريّ لقيام أيّ سياسة جدّية. ذلك أنّ ما يُعطّل السياسة، في نهاية المطاف، ليس غياب المشروع، بل غياب الحُكم، غياب القدرة على التمييز، وغياب الجرأة على تسمية الأشياء بأسمائها.

غرامشي قبل السجن: التكوين في الهامش

كثيرًا ما يُقرأ أنطونيو غرامشي بوصفه ابن **دفاتر السجن**، كما لو أنّ فكره وُلد لحظة أُغلقَت الزنزانة عليه، واستوى في تلك العزلة التأملية المشروعُ المعقّد الذي سيحمل لاحقًا، لدى مفكّرين ماركسيّين، اسم «الهيمنة الثقافية». غير أنّ مثل هذه القراءة تُقصي كلّ ما سبق الاعتقال، وتُحوّل التجربة المبكرة إلى محض مقدّمة باهتة، بدل أن تراها لحظةَ تكوينٍ عنيف، وانفلات ضروريّ للكلمات في زمنٍ عاجلٍ ومضطرب.

كان غرامشي، إبّان كتابة هذه المقالات، شابًا في نحو الخامسة والعشرين، مُثقّفًا هشًّا في بدنِه، قويًّا في جَدَلِه، يعيش بين فقر سردينيا وجفاف تورينو، بين لسانٍ أميٍّ، وبين لغة نظرية لم يتملَّكها بعدُ كلَّ التّملّك. كان يجد نفسه موزّعًا بين «الجنوب» و«الشمال»، بين الثقافيّ والطبقيّ، بين ما هو شخصيّ وما هو بنيويّ، بين بؤس الفلّاحين وانسحاقِ العمّال؛ وفي قلب هذا التمزّق، بدأ يكتب.

لم يكن يملك «مشروعًا» بالمعنى المتأخّر للكلمة، بل كان يخوض مغامرة التفكير من موقع الحاجة، من ضغط اللحظة، ومن إدراكٍ مريرٍ بأنّ ما يقوله العالمُ لا يكفي لفهم ما يجري فيه. ذلك أن إيطاليا كانت، آنذاك، في خضمّ تحوّلات كبرى: حرب عالميّة تهزّ أركان الدّولة الليبرالية، طبقة عاملة تُجرِّب خوضَ الإضرابات الكبرى، أحزاب تتخبّط بين الحياد والتعبئة، وسرديّاتٌ متضاربة حول معنى الأمة، وحقيقة الشعب، وقيمة الدّولة. وفي خضمّ

ذلك، لم يكن غرامشي ينتج خطابًا مكتملًا، بل كان يُعلّق، يُجادل، يُشكّك، يقترح. وهذا ما يجعل من مقالاته المبكرة فضاءً خصبًا لتتبّع ولادة المفاهيم التي ستنضج لاحقًا، كأنّنا نشهد مخاضًا نظريًا يجري في وَضحِ الفعلِ، لا في برودةِ السِّجن.

إنّ مقالات هذا الكتاب تضعنا في تماسّ مباشر مع عقلٍ يُفكّر تحت الضغط، ليس في مأمنٍ من الزمن، بل في عُرضِه. عقلٍ لم يكتب ليراجِع ما جرى، بل ليوقِف ما كان يمكن أن يجري، ولذلك يكتسب كلامه طابعًا تحذيريًا دائمًا، لا يهادن، ولا يؤجّل، ولا يتجمّل. إنّه فكرٌ يتكوَّن في الهامش: في الهامش الجغرافيّ لسردينيا، في الهامش الطبقيّ لطفلٍ يدرس دون أن يحصِّل كفايتَه من طعامٍ، وفي الهامش الفكريّ لصحفيٍّ شابّ لم تُعلِّمه الجامعات، بل علّمه العطبُ والصراعُ والتناقض.

ومن هذه الهوامش، سيبدأ لاحقًا بناءُ المركز.

خيوط ثلاثة تتقاطع في نصوص غرامشي

١. الحرب كمِرآة للذهنيّات؛

لم تكن الحرب، في مقالات غرامشي، حدثًا برّانياً يُعلّق عليه كما يُعلّق المراسلون أو المؤرخون. بل كانت حدثًا جوّانيًا، عنيفًا، هزّ البنى العميقة للذهنية الأوروبية، وعرّى التناقضات الكامنة في الخطاب الديمقراطي، وفي تمثّلات الشعب، وفي وظيفة الدّولة الحديثة. لقد كان غرامشي، كما يقول في إحدى مقالاته، يشعر

أنّه يرى لأول مرة ما كان في السابق مجرّد أفكار: لم تعُد الدّولة مصطلحًا، بل آلة تبتلع، ولم يعُد الشعبُ رمزيّة، بل قطيعًا يُساق، ولم تعُد الحرب مجرّد سياسة بوسائل أخرى، بل مِرآة تُظهر قبح الذهنيّة التي أنتجتها.

في مقال **الكذب والاستسلام (الحرب والمستقبل)**، تتكشّف أمام القارئ هذه الرؤية الجدليّة التي تقيم صلة بين الخرافة والدعاية والدّولة: لم تقع الحرب لأنّ النّاس أرادوها، بل لأنّ الذهنيّة العامة كانت قد جُهّزت سلفًا لتبريرها، بصور الجنود الخنازير، والنساء ذوات رؤوس الإوَز، وببطاقات البريد الملوّنة، أي بمنظومة رمزية هشّة، بدائية، تُمجّد الحرب باسم الخوف من الآخر أو الحقد عليه أو الشهوة العدوانية التي غُذِّيت طويلًا. ولذلك لم يكن غرامشي مهتمًّا بتحليل التكتيك العسكري، بل بتحليل القبول الشعبي بالحرب، ذلك القبول الصامت، المتواطئ، اللامُفكَّر فيه. كان يرى فيه نتيجةً مباشرةً لفشل التربية السياسية، ولتآكل الأخلاق الجماعية، ولغياب النقد.

في نصوصه عن الحرب، لا نقرأ وصفًا لجبهات القتال، بل قراءة في كيف تتحوّل الشعارات إلى مقابر، وكيف يصير الفرد مسلوب الإرادة، ويُلقى به وسط المجزرة باسم الوطنية. بل الأدهى من ذلك، أن غرامشي يدرك أن الخرافات التي غذّت الحرب الأولى، لن تموت مع نهايتها، بل ستتكيّف، ستُغيّر كلماتها، وهو ما يهيئ للانفجار التالي.

إنّ ما كان يقلق غرامشي ليس الحرب فحسب، بل قدرة المجتمع على أن يُنتجها مرّةً بعد مرّة، دون أن يُدرك آليّاته الداخلية، ودون أن يُغيّر لغته.

٢. السياسة بوصفها تمرينًا لغويًّا؛

لا تُبنى الهيمنة على القهر وحده، بل على اللغة. هذا ما يتسلّل، جملةً بعد جملة، من بين أسطر غرامشي في مقالاته المبكّرة. فهو لا يكتفي بانتقاد الواقع السياسي، بل يُمعن في تحليل الكلمات التي تصفه، ويتوقّف طويلًا عند مصير بعض المفردات، كيف تغيّرت دلالاتها، ومن غيّرها، ولماذا.

في مقال كيف تتغيّر اللّغة، يُقدّم غرامشي نموذجًا دقيقًا من النقد الإيديولوجي المبكّر: كلمات مثل **panciafichista** (آكل التين الجبان) أو **guerrafondaio** (مولع بالحرب)، ليست مجرد نعوت قدحية أو مصطلحات دارجة، بل هي **أدوات قتال رمزي**، تشير إلى كيف يُعاد بناء الشعور العام من خلال تشويه اللغة ذاتها.

فحين تختفي كلمة معيّنة من التداول، لا يعني ذلك زوال الواقع الذي كانت تصفه، بل قد يعني نجاح بنيةٍ سلطوية في تغيير زاوية النظر إلى ذلك الواقع، وفي هندسة انفعالات النّاس عبر ألفاظ «ألذّ في الفم»، كما يقول غرامشي بسخرية مُرَّة. ومن هنا، فإنّ السياسة، في نظره، لا تنفصل عن اللغة: فهي إمّا أن تكون ممارسةً واعيةً بالمعجم الذي تُنتِج من خلاله الواقع، أو أن تكون مجرّد تكرارٍ لخطابٍ سبق أن هُندِس لغيرها.

من هنا أيضًا، تنبع قيمة نقده للذهنيّة «الديمقراطية» الزائفة التي كانت، في رأيه، تتغنّى بشعارات الثورة بينما تُكرّس الخضوع، وتدّعي الدفاع عن الشعب بينما تفتّت بنيته الرمزية. كانت ديمقراطيةً لا تملك حتى لغتها، بل تعيش على استعارات ميتة، أو مفاهيم معارة، أو كلماتٍ فقدت جذرها.

ولذلك، فإنّ مجمل ما نقرأه في هذه المقالات لا ينفصل عن مشروعٍ لغويّ عميق، سيُصبح لاحقًا، في دفاتر السجن، مشروعًا متكاملًا لنقد المثقّف، للمدرسة، للأدب، وللأمة.

لكنّ البذور هنا واضحة: اللغة ساحةُ معركة، ومن لا يعرف أسماءه، سيُجبَر على تبنّي أسماء الآخرين، وسيرى العالم بعيونهم، ويتحمّس لقضاياهم، ويموت في حروبهم.

٣. من الأخلاق الفردية إلى السياسة بوصفها تربية؛

ليس غرامشي منظّرًا أخلاقيًّا بالمعنى التقليدي، لكنّه، منذ مقالاته المبكرة، يصرّ على أنّ السياسة لا يمكن أن تقوم دون أخلاق. لا بوصفها وعظًا أو قناعةً شخصية، بل باعتبارها بنيةً جماعيةً للسّلوك، إيقاعًا مشتركًا للفعل، معيارًا ضمنيًّا للتمييز بين الحياة الحقيقية والزائفة.

في مقاله التأسيسيّ أكره اللامبالين، لا يُدين غرامشي موقفًا، بل يكشف هشاشةَ بنيةٍ كاملةٍ من الصمت والتأجيل والانسحاب، تلك البنية التي تجعل الممكن يبدو مستحيلًا، وتجعل اللامشاركة تبدو حيادًا، والحقيقة مجرّد وجهة نظر.

إنّ اللامبالاة، في هذا السياق، ليست سلوكًا فرديًّا، بل عَرَضًا لبنية اجتماعية فقدت الحسّ التّاريخي، وتخلّت عن مسؤولية المشاركة في صنع المصير المشترك. ومن هنا، يبدأ تصوّره للسياسة كتربية، لا كخُطَب. فالتحوّل الاجتماعي لا يبدأ بانتفاضة، بل ببطءٍ، بجهدٍ، بتربية ذاتيّة قاسية، يقول في أحد مقالاته: «ينبغي أن نُغيّر أنفسنا». فبدلاً من أن يُلقي باللوم على البرامج والشعارات، يعود غرامشي إلى المسؤوليّة الفرديّة، إلى السلوك اليومي، إلى نمط التفكير الذي يجعل المرء يُكرّر ما لا يؤمن به، ويعيش بعقلٍ لا يُشبهه.

وفي هذا المنظور، لا يمكن بناء حزب بدون بناء إنسان، ولا يمكن تغيير العالم بدون تغيير اللغة التي تصفُه، ولا يمكن تربية الثورة دون تربية الذات. تبدو هذه المقاربة بعيدةً عن التحليل البنيوي، لكنّها ضروريّة، لأنّها تُمسك بالجذر الأخلاقيّ الذي يجعل السياسة ممكنة. في كلّ سطر من هذه المقالات، ثمّة نَفَسٌ تربويّ، ليس مدرسِيًّا، بل شاقًّا، عميقًا، مُطالبًا. ولذلك، فإنّ غرامشي لا يُقنِعنا، بل يُربّينا.

كتابة غرامشي: مقالة / أداة / معركة

حين نقرأ مقالات غرامشي المبكّرة، سرعان ما ننتبه إلى أمرٍ حاسم: هو لا يكتب نصوصًا «عن» الواقع، بل يكتب «فيه» وضدّه. لا يكتب كمؤرّخٍ يتأمّل من علٍ، ولا كمُحلّلٍ بارد، بل كمنخرطٍ مشتبكٍ في معركة، والمقالة عنده ليست جنسًا صحفيًا أو أدبيًا، بل سلاحاً.

إنها قصيرة، لكنّها مشحونةٌ. مُباشِرة، لكن غير سطحيّة. هجّاءَةٌ حيناً، تأمّليّة طوراً، تحريضيّة تارةً، لكنّها دومًا تنطلق من فرضيّة واحدة: اللغة ليست محايدة، ومن يكتب، يختار موقعه، ويُعلن ولاءه، ويكشف أدواته.

في هذه المقالات، تتكوّن ملامح ما سيُصبح لاحقًا «الأسلوب الغرامشيّ»: أسلوبٌ يُفضّل الحِجَاج على التقرير، والتفكيك على الإدانة، والسخرية المبطّنة على العنف المباشر؛ أسلوب يبني مستوياتٍ متعدّدة من التلقّي، عبر خلقِ نوعٍ من المسارّة بينه وبين القارئ، يحبو القارئ بين مفاهيم ماركسية وإديولوجية، ولكنّه في الآن نفسه يداعب بيديه حكاياتٍ وقصصاً وطرائف ومُلَحاً. لكنّ هذا الأسلوب لا ينفصل عن رهانه السياسيّ العميق: إنّه أسلوب يحترم القارئ، لا يستخفّ به، ولا يُعلِّمه من علٍ، بل يُفكّر معه، يُشاكسه أحيانًا، ويُحرّضه على الشكّ حتى في اللغة التي يقرأ بها.

لقد كانت المقالة عند غرامشي معركةً لغويّةً وسوسيولوجيّة، تُستَخدم فيها المفردة لا كزينة، بل كطلقةٍ. وكلُّ استعارة فيها محمّلة بملفّات كاملة من الصراع الطبقي، والخلفيّات التّاريخيّة، والرهانات الرمزيّة. حتّى حين يتحدّث عن المدارس، أو المجلات، أو التعليم، لا يفعل ذلك من موقع الناقد الثقافيّ، بل من موقع من يعرف أنّ كلّ تفصيلةٍ في البنية الرمزية تُسهم في إنتاج الهيمنة، أو في تفكيكها.

هكذا تصير المقالةُ عندَه صورةً مصغّرةً عن مشروعٍ أكبر: مشروع التفكير في السُّلطة من داخل الكلمات. وحين سيكتب لاحقًا في **دفاتر السجن** عن الهيمنة، وعن الكتلة التّاريخية، وعن الوظيفة العضويّة للمثقّف، سيكون قد بدأ هذا المسار من تلك السطور الأولى، حين كتب، لا ليوضّح، بل ليُقاتل.

ضدّ زمن بلا أسماء

من بين كلّ ما كتبه غرامشي في سنواته الأولى، ثمّة شيءٌ لا يشيخ: ذاك الإصرار العميق على تسمية الأشياء. على ألا نترك الكذب بلا اسم، وألا نُمرّر البلاهة في زيّ الحكمة، وألا نخلعَ على الحياد لقبَ التعقّل.

حين نقرأه اليوم، لا نفعل ذلك من باب التقديس، ولا من باب استعادة ماضٍ ماركسيٍّ مجيدٍ، بل لأنّنا نعيش مرّةً أخرى في عالمٍ بلا مسمّيات واضحة، في زمنٍ تجري فيه الحروب دون أن تُسمّى، وتُمنح فيه الشهادات دون معرفة، ويُمارس فيه القهر باسم الإصلاح، ويُنتخب الجبناء لأنّ الكلمات المشرّفة فقدت معناها.

كتب غرامشي عن الحرب، لا ليصفها، بل ليكشف أن الخرافة هي من خاضت الحرب أولًا. أنّه ما من معركة دموية تُخاض قبل أن تُخاض معركة في المعجم، في العناوين، في نشرات الأخبار، في أغلفة الكتب، في القصائد الوطنيّة. وها نحن نراه اليوم، بنظرته الفاحصة، ينظر معنا إلى حروبنا، إلى «الحروب النظيفة» التي تُدار

عبر الشاشات، إلى المجازر المسوَّغة بالخرائط والمصالح، ويسألنا مجدّدًا:

هل سمّيتم هذه الحرب؟ هل تملكون لغتكم لتصفوها؟ أم أنكم تتكلّمون بلغة العدو؟

كتب غرامشي عن المثقّفين الذين انصرفوا إلى تنميق الشعارات، وعن الصحف التي تملأ العيون لكنّها تُفرغ العقول، وعن المدرسة التي لا تُعلّم بل تُبرمج، وعن الشهادات التي لا تُثبت كفاءة، بل ترسّخُ كذبة قانونيةً، وعن استقالة الأسرة من واجبها التربوية الأخلاقيّ. ومَن يقرأه اليوم، في ظلّ فضائح مثل تزييف الشهادات، والمسارات الجامعيّة المبنيّة على الزبونيّة، يفهم أنّ ما كان يكتبه في زمنه، لم يكن دفاعًا عن شكل النظام، بل عن شرط الحُكم نفسه: الاستحقاق.

في زمن باتت فيه الحقيقة مائعة، والنقاشات سائلة، والأحكام مبنيّة على الانطباع لا على المبدأ، يذكّرنا غرامشي أنّ كلّ سياسة لا تبدأ من إعادة بناء اللّغة الأخلاقيّة، ليست سوى تدبير ظرفيّ للبقاء. لذلك لا يكاد يعثر القارئ في مقالاته على أجوبة جاهزة، بل يُرغم على إعادة صياغة الأسئلة: يتساءلُ عن المسافة بينَه وبين الرّاهن، عن مواقفه من عالمه، عن ثمن الانخراط وأثمان اللامبالاة، عن لُغتِه ولُغتِهم، عن تكوينِه وشهاداتِه ومسؤوليته، عن الحرب التي يتوهّم أنّها بعيدةٌ، وأنّ صداها لا يمكن أن يدركَه... عن، وعن، وعن... في عالمٍ يُنتَجُ فيه الزيفُ بسرعة تفوق قدرتَنا على تسميته، نعود إلى

غرامشي، لأنّه، وسط كلّ هذا الركام، يُطالبنا بأمرٍ بسيط، صعب، أخلاقيّ، وثوريّ في آنٍ: أن نسمّيَ الأشياء، أن نتحمّل نتائج ذلك، وأن نبدأ بأنفسنا.

محمّد آيت حنّا

I

بادئ ذي بدء

اللامبالون

أكره اللامبالين. مثلي مثل فريدريش هيبل[1] أرى أنّ «معنى أن يحيا المرء، هو أن يقاوم». لا معنى لأن يكون النّاس أناساً وكفى، أن يكتفوا بالعيش دون انخراطٍ في شؤون مدينتهم[2]. لا يعرف الإنسانُ العيشَ الحقّ إلّا متى كان مواطناً، أي متى قاومَ. اللامبالاة هي التبلّد، هي التطفّل، هي الجبن، وهي نقيض الحياة. لذلك أكره اللامبالين.

---

(١) **فريدريش هيبل** (Friedrich Hebbel): شاعر وكاتب مسرحي ألماني (١٨١٣-١٨٦٣)، يُعدّ من أبرز كتّاب التراجيديا في ألمانيا القرن التاسع عشر. امتزجت أعماله بنزعة وجودية وتشاؤمية، وركّز فيها على صراعات الفرد مع المصير والمجتمع. تُنسب إليه عبارة: «معنى أن يحيا المرء هو أن يقاوم»، التي عبّر فيها عن فهم للحياة يقوم على الصراع الدائم، وتجاوز السلبية والاستسلام. (الحواشي من وضع المراجع، ما لم ترد الإشارة إلى خلاف ذلك).

(٢) المدينة هنا لا تُفهم بالمعنى الجغرافي أو الإداري، بل تشير إلى المجال السياسيّ والاجتماعيّ الذي يتحدّد فيه وجود الفرد كمواطن. فهي تحيل على المفهوم الكلاسيكي لـ«المدينة» (polis) كما صاغه فلاسفة اليونان، أي الفضاء الذي تُمارَس فيه الحياة العامّة، وتُبنى فيه الروابط المدنية، وتُحدَّد فيه مسؤولية الأفراد في الشأن الجماعي.

اللامبالاة هي وزنُ التّاريخ المهملُ[1]. إنها كرةُ الرّصاص التي تُقيّد المبدع، المادّةُ الخاملة التي تغوص في غياهبِها أقوى مظاهر الحماسة، المستنقعُ الذي يُسيِّج المدينةَ العتيقة ويذود عنها بقوّةٍ تفوق أمتَن الأسوار، يذود عنها خيراً ممّا تفعلُ صدور محاربِيها، وذلك لقدرته على أن يبتلع في دوامته الموحلة أعتى المُغِيرين، فيهلِكَهم، ويثبط عزيمتهم، حتى ليَدفعُهم أحياناً إلى التخلّي عن مهتمهم البطولية.

تعمل اللامبالاة بقوّةٍ في التّاريخ. تعمل عملاً سلبياً منفعلاً، لكنّها تعمل. إنها القَدَر؛ إنّها ما لا يُمكن أن نعوّل عليه؛ إنّها ما يقلب البرامجَ، ويُطيح بأحْكَمِ الخُطَط؛ إنها المادة الخام الخاملة التي تتمرد على الذّكاء وتخنقه. إنّ [كلّ] ما يحدث؛ سواء منه الشرّ الذي يحيق بالجميع، أو الخير الممكن الذي قد ينجم عن مبادرةٍ بطولية (ذات قيمة كونية)؛ قلنا إنّ ما يحدُث، ليس نتيجةَ الفعل الذي يبادر إليه بضعةُ أفرادٍ، بقدر ما هو نتيجةُ لامبالاةِ الأغلبيّة وتقاعسهم. ما يحدث، لا يحدث لأنّ بعض البشر رغبوا في حدوثه، وإنّما لأنّ عمومَهم رضخوا لإرادته، وسمحوا بحدوثه، وتركوا حبل الأحداث يتعقّد، عُقداً على عُقدٍ، حتى ما عاد بالإمكان، حلُّها مستقبلاً إلّا بحدّ السّيف؛ ولأنّهم تهاونوا إزاء شتى القوانين التي ظلّت تصدر [وتترسّخ] حتى ليستحيل إبطالُها بغير ثورةٍ؛ ولأنهم فسحوا المجالَ لتولّي السُّلطة من قِبل رجالٍ لن يطيح بهم إلّا تمرّدٌ.

---

(١) الوزن الذي لا قيمة له، مثل وزن التغليف الذي لا يحسب من البضاعة.

الحقُّ أن الحتمية التي تبدو مهيمنةً على التّاريخ لا تعدو أن تكون مظهرًا مضلِّلا من مظاهر هذه اللامبالاة، وهذا التقاعس. ثمّة وقائعُ تنضج في الظلِّ، ثمّة سواعدُ تنفلت من كلّ رقابةٍ، ناسجةً شبكة الحياة الجماعية، في غفلة من عامّة النّاس، لأنّ عامّة النّاس لا تبالي بذلك. هكذا تلفي مصائرُ حقبةٍ من الحقب نفَسها رهناً للتّلاعبِ، يُتحَكَّمُ فيها تبعاً لرؤى ضيقة، وأهدافٍ مباشرة، وطموحاتِ وأهواءِ جماعاتٍ صغيرة فاعلةٍ، في غفلةٍ من الجموع، لأنّ الجموعَ لا تكترث. غير أنّ الوقائع، إذ تنضج، لا بدّ أن تفصح عن نفسِها؛ ها قد تمّت الشّبكةُ التي حيكت في العتمة؛ وإذ ذاك يبدو أنّ الحتمية تجرف كلّ ما تصادفه في طريقها، أشياءً وأناساً، ويبدو أنّ التّاريخ ليس سوى ظاهرةٍ طبيعية هائلة، ثورةِ بركانٍ، أو زلزلَةِ أرضٍ، والجميعُ ضحايا لها؛ سواء من سعى فيها ومن لم يسعَ؛ من كان يدركها، ومن كان غافلاً عنها؛ من كان فاعلاً وساهم فيها، ومن لاذ بلامبالاته. وهذه الفئة، فئة اللامبالين، لا تخفي انزعاجها من النّتائج، تسعى إلى التملّص من العواقب، وتحرص على أن تقطعَ في علاقتها بما جرى: كلّا هي لم ترغب في حدوث ما حدث، ولا مسؤوليّة لها فيه. مِن هؤلاء مَن يتباكى بكاءً مثيراً للشفقة، ومنهم من يفحش في السبّ والتجذيف؛ لكنْ قَليلٌ جداً من يتساءل: ماذا لو أنّني، أنا أيضاً، اضطلعت بواجبي، وسعيتُ في إعلاء إرادتي، ورأيي، هل كان ليَقَعَ ما وقع؟ الحالُ أنّ قِلّةً قليلةً فقط يلومون أنفسهم على لامبالاتهم، على تشكّكهم وتردّدهم؛ وقِلّةً أقلَّ، يتحسّرون على تقاعسهم عن مدّ يد العون، وعن النّضال، إلى

جانب تلك الجماعات من المواطنين الذين ناضلوا، وبادروا إلى بذل هذه المنفعة أو تلك، دفعاً لهذا الشرّ.

أمّا الغالبية العظمى منهم فيفضّلون، بعد أن تتمّ الأحداث، أن يتحدّثوا عن فشَلٍ مُثُلٍ، وعن انهيار برامجَ انهياراً ناجزاً، وغيره من الكلام الذي يريح النّفس. ويعيدون السيرة على بدءٍ، سيرةَ التنصّل من كلّ مسؤولية. وليس مردّ تحلّلهم من المسؤولية كونهم يعانون من عدم وضوح في الرؤية، أو من عجزٍ في تصوّر الحلول المناسبة للقضايا الأشدّ إلحاحًا، أو لتلك القضايا التي لا تقلّ عنها إلحاحاً، وإن تطلب حلُّها وقتاً ومعرفةً أكبر. غير أنّ الحلول التي يتصّورونها تظل عقيمةً ومساهمتهم في الحياة الجماعية لا تهتدي بأيّ نورٍ أخلاقي؛ إنها [مجرّدٍ] نتاجٍ للفضول الفكري، وليست نابعة من أي إحساسٍ بمسؤولية تاريخية تتطلّب مِن الجميع أن يكون فاعلاً في الحياة، ولا تَقبَل أيّ ضربٍ من ضروب اللاأدرية أو اللامبالاة.

أكره اللامبالين أيضاً للإزعاج الذي يتسّبب لي به تباكيهم وادّعاؤهم البراءة أبَداً. فأنا أحاسبُ كلّا منهم [حساباً عسيراً]: كيف تحمّلتَ المهمةَ التي كلّفَتكَ بها الحياةُ، والتي ما انفكّت تكلّفك بها كل يومٍ؟ أسأله: ما الذي فعلتَه؟ ثمّ، بخاصّةٍ، ما الذي لم تفعَلْه؟ وأحسُّ بأنّني غير مطالبٍ بالرّحمة، لن أهدِر شفقتي، ولن أشاركهم البكاء. أنا مقاومٌ، أحيا، وأستشعر، في ضمائرِ أبناءِ معسكري الحيّةِ، نبضَ مُدُنِ المستقبل التي نحن بصدد بنائها. في هذا المعسكر لا تستثني السلسلةُ الاجتماعية أحداً، وفيه لا تكون الأحداث ثمرةَ الصدفة،

أو القدر؛ وإنَّما نتيجةَ العمل العقليّ للمواطنين. في معسكري لا أحد يَلزم النافذةَ، متفرّجاً يراقب القلّة القليلة تضحّي وتَدمَى في تضحيتها. فإن حدثَ أن لزمَ أحدٌ النافذةَ متفرّجاً، يترصَّدُ، فإنّه لن يسعى إلى أن يغنم من الخير الزهيد الذي ينتجه نشاطُ القلّة القلية؛ ولن يُفرِّغ إحباطَه وخيبتَه بشتمِ من ضحى، وأدمى نفسَه، إن فشِل [هذا المضحّي] في بلوغ مسعاه.

أنا أحيا، أنا مقاومٌ. لهذا السبب أكره من لا يقاومون، أكره اللامبالين.

مقال غير موقّع، La Città futura

١١ فبراير/ شباط ١٩١٧

بلادة السّاسة
(حقيقة تبدو مفارَقةً)

يعتمد النشاط العلمي، في جانبٍ كبيرٍ منه، على جهد تخييلي؛ فمَن يعجز عن صياغة أيِّ فرضيات لن يصبح عالمًا أبدًا. وهذا ما يحدث في النشاط السياسي أيضًا، إذ يعتمد جانبٌ كبير منه على الخيال. لكنَّ الفرضية في النشاط السياسي لا تُبنى انطلاقاً من وقائع ساكنة، لا تصاغ انطلاقاً من مادّة جامدة، لا حياة فيها؛ فالخيال في السياسة يتعلّق بالبشر، وآلامهم وانفعالاتهم، وما يحكمهم من ضروراتٍ، بما هم بشرٌ. إنْ أخطأَ عالمٌ في فرضيته، فهذا ليس بالأمر الخطير؛ ففي نهاية المطاف سيكون قد فقد قَدرًا ما من الثروة المادية، أي من الأشياء: محلولٌ رسَبَ، أو بالونٌ انفجر. أما إن أخطأ رجل السياسة في فرضيته، فإنَّ حياة البشر نفسها تكون في خطر؛ خطأُ السياسيّ يعني جوعاً وانتفاضةً، بل وثورةً للنّجاة من الموت جوعاً. في الحياة السياسية لا بدّ لنشاطِ الخيال من أن يستنير بقوّةٍ أخلاقية، هي التعاطف الإنساني؛ وإلّا أظلمَ بسبب الفشلَة الهواة، على شاكلة ما يحدث بين العلماء. والمقصود بعدم الكفاءة، في حالتنا هذه،

الافتقار إلى العمق الروحيِّ وتبلّد الإحساسِ وانعدام التعاطف الإنسانيّ. لكي يتمكّن المرء من تلبية حاجات الإنسان في أي مدينة أو إقليم أو أمَّةٍ تلبيةً ملائمة، لا بدّ له أوّلاً من أن يشعر بهذه الحاجات؛ إذ ينبغي أن يتمثّلَ ظروفَ هؤلاء البشر في مخيِّلَته بصورة ملموسة، وكذا حياتَهم، وعملَهم اليوميَّ، ومعاناتهم، وآلامهم، وأحزانَهم في حياةٍ أُجبِروا على عيشها. إن لم يُحبَ المرء ملكةَ صياغة المشاهد الحياتية هذه، فلن يتمكن أبدًا من استشعار التدابير العامّة أو الخاصّة التي تعمل على خلق انسجامٍ بين ضرورات الحياة وإمكانات الدّولة. مَن يفكر في القيام بأي عملٍ في الحياة، عليه أن ينجح في توقّع ردِّ الفعل الذي يُثيره هذا العمل، ومدى التداعيات التي سيخلِّفها. إنّ قَدْر السياسيِّ ليَعظُم بقدْر ما تتقوّى بصيرتُه، وقدرتُه على التوقّع؛ ويُعتبر حزبٌ سياسيٌّ قوياً، بعدد ما تحوي صفوفُه من هؤلاء الأفراد ذوي البصائر النّافذة.

في إيطاليا، لا حظَّ للأحزاب الحاكمة من هؤلاء الأفراد؛ ليس ثمّة سياسيٌّ عظيمٌ، ولا حتّى متوسّط. إنّ أحد سمات إيطاليا، وهي ربّما السّمة الأكثر ضررًا على فعاليّةِ الحياة العامة في بلدنا، هي انعدام الخيال الدرامي. قد نظنُّ أنّنا أمام حكمٍ متناقض من النّاحية الأدبيّة، لكنَّ الأمر يتعلّق في الواقع بملاحظة شديدة الواقعية. كلُّ تدبير هو توقُّعٌ للواقع. ولكي يكون كذلك، ينبغي القيام بعملٍ تحضيريّ كاملٍ وتامّ؛ أي ينبغي الحرصُ على عدم إهمال أية فرضية أثناء التحضير، ومن بين العدد اللانهائيّ من الفرضيات المحتملة،

ينبغي استبعادُ كلّ فرضيةٍ لم تصمُد في محكّ الصياغة الدرامية. والحالُ أنّ السلطات الإيطاليّة، سواء منها الحكومية أو سلطات الأقاليم أو المدن، لم تتَّخِذ أيَّ إجراءٍ إلى الآن إلا وكان متأخرًا، أو توجّب تعديله مراراً، أو إيقافه عاجلًا أم آجلًا، لأنّه بدلًا من أن يرفَع الضرر، لم يعمل إلّا على تعزيزه. إن كانت هذه السّلطات قد فشلت في خلق انسجام على مستوى الواقع، فإنَّ مردّ ذلك إلى كونها قد فشلت أوّلاً خلق هذا الانسجام بين العناصر على مستوى الفكر نفسه. إنّ السّلطات تجهل الواقع، تجهل إيطاليا [الواقع] التي قوامها أناسٌ يعيشون ويعملون ويعانون ويموتون. يتجلّى انعدام كفاءة السلطات، في غياب أيّ مودَّةٍ لديها حيالَ البشر. إنّنا إزاء خُطباء تغلب عليهم النّزعةُ الرومانسية، ولسنا أمام بشرٍ يشعرون بكيفيّة ملموسة. إنّهم يرغمون الفرد أن يعاني سدىً، وفي الآن نفسه يطلقون العنان لأناشيدهم اللّهابة التي تتغنّى بالفضيلة، وبقوّة التضحية التي يتمتّع بها المواطن الإيطاليّ.

إنّ رجال السُّلطة، أولئك الذين تتشكّل منهم الحكومة، وبيروقراطيّي الأقاليم، وكذا الموطنين: جميعهم يجهلون الكتلة المجتمعيّة؛ نقصد الكتلةَ المجتمعية بما هي حاصل الأفراد، وليس بما هي حشدٌ من الدّهماء؛ ذاك أنّ حشد الدّهماء هو صنمُ الديموقراطيات. الديمقراطيات تعبدُ الحشد، وتضحّي في سبيله بقربان الأفراد. يعذّبُون الفردَ؛ ويمعِنون في القسوة لأنّ خيالَهم قاصرٌ عن تصوّر حجم الألم الذي تُحدثه قسوتُهم. وما داموا قاصرين

عن الشّعور بألم الآخرين فإنّهم يُبدون القسوةَ حتّى حين تكون بلا طائلٍ أو منفعة. [لذلكَ] أطلقوا أولى أفعالهم، أي الحرب، دون أن يتوقّعوا جسامَتَها، أو عمق آثارها المباشرة والبعيدة. كانوا يعرفون أن إيطاليا لا تُنتج ما يكفي حاجتَها. لم يتوقعوا أنّه سيأتي يومٌ يفقدون فيه مالَ الزُبدة، بل والزّبدة أيضاً[1]. ولمّا أدركوا حقيقة ما جرى، كان الأوان قد فات. لكن ما همّهم! ما يزالون رغم كلّ ذلك قادرين على اتّخاذ تدابير، ما زالوا يستطيعون توزيع المعاناة على الجميع بشكلٍ متساو. لم يشعروا بالمعاناة: لقد خلقوا الفوضى، تركوا أصحاب النفوذ الاقتصادي الأقوياء ينهبون ويبدِّدون القليل المتبقي. فرضوا المعايير التي ينبغي أن يُصنع بها الخُبز: وما كادوا يصدرون المرسوم المحدِّد لتلك المعايير، حتى أدركَ الجمهور جسامة الخطأ؛ فلماذا لم يدرك المسؤولون ذلك من قبلُ؟ لماذا لم يتمثّلوا هؤلاء الضحايا في أذهانهم؟ لِمَ لَم يتوقّعوا أصلاً وقوع ضحايا؟ إنّهم لا ينفكّون يلقون المواعظ ضدّ الأغنياء الذين، من غناهم، لا يتناولون لُباب الخبز. لكنّهم لا يشعرون بأنّ كلَّ هذا الإسراف، إنّما هو من معاناة الفقراء؛ يَحُدّون من ساعات استخدام الغاز، لا يعبؤون بأنّ فرض استخدام

---

(١) تُحاكي العبارة هنا التعبير الفرنسي «perdre le beurre et l'argent du beurre» (أن يخسر الزبدة وثمنها معًا)، والذي يُستعمل للدلالة على الخسارة المزدوجة الناتجة عن الطمع أو غياب الحكمة. غير أنّ النصّ يوظّف هذا التعبير بنبرة تهكّمية سوداء موجّهة إلى **الطبقة السياسية الإيطاليّة زمن الحرب**، التي خاضت الصراع دون إدراك لتبعاته أو استعداد لتكاليفه، رغم علمها بأنّ البلاد لا تملك ما يكفي لإعالة ذاتها. لم يتسبب الساسة في خسارة الموارد («الزبدة») فحسب، بل أدّوا إلى انهيار امتيازاتهم فحسب بل أسّسوا لانهيار المنظومة التي كانت تنتج تلك الموارد («مال الزبدة»).

الغاز لساعتين فقط، يعني، أن تُمنع فئةٌ من إعداد غدائها؛ فئةُ أولئك الذين يضطرون إلى تناول الطّعام كي يستطيعوا العمل، ويضطرون إلى العمل كي يتمكّنوا من إطعام أنفسهم؛ والحالُ أنّ تخصيص ساعتين في الصباح الباكر يعدُّ مبالغةً ولا طائل من ورائها. (...)[1] لأنّ القمح لا يصِل رغم توافره؛ ولأنّ الفرد لا يستطيع شراءَ طعامه رغم توفّره على كوبونات لاقتنائه، إذ ما نفع الكوبونات والطعام أصلاً غير متوفّر؛ ولأنّ المخابز تغلق أبوابها ما إن يدنو منها المرء؛ ولأنّ الأطفال يرفضون ابتلاع دوائهم، [redacted] عاجزون عن تخفيف مرارته، لانعدام السكّر، بينما نرى مصنّعي شراب الفِرموث[2] مستمرّين في إنتاجه، ولا يشتكون نقص السكّر. إنّ السّلطات لا تعرف كيف تخلق انسجاماً وتوازناً بين واقعِ الضِّيقِ، وبين إمكاناتِ جعل هذا الضِّيق أقلَّ ضرراً على الجميع. لا يخطر ببالهم أنّ توفّر الطعام لخمسين فردًا، يعني إمكان أن نضمن العيشَ لمائةٍ، شرط تدبير الاحتياجات تدبيراً متوازناً(...)[3].

٣ أبريل/ نيسان ١٩١٧

---

(١) حذفت الرّقابة أربعة أسطر وربع سطر.

(٢) نبيذ معطر بنباتات مرة كالأبسنت وقشر البرتقال، أُنتجت النسخة الحديثة من هذا المشروب للمرة الأولى بين منتصف وأواخر القرن الثامن عشر في مدينة تورينو الإيطاليّة.

(٣) حذفت الرّقابة ستة وعشرين سطرًا.

تشويشٌ على معنى شائع
(الدّيماغوجية)

إنّ كلمتَي ديماغوجي وديماغوجية هما أكثر ما يتوسّل بهما المتحذلقون والمتزمتون كلّما أرادوا أن يوجّهوا الضربة القاضية لنشاط «الزعماء» و«القادة» الاشتراكيين. والحال أنّ الديماغوجية، بما يُقدَّم على أنّه معناها «اللّغوي الدقيق» الموروث عن تارتوف[1]، لا تحتمل في واقع الأمر سوى معنى واحد: النشاط، الدعاية الاشتراكية التي تهدف إلى إيقاظ النائمين، وتنظيم غير المؤطَّرينَ، وتحفيز الميل إلى البحث والحريّة لدى جميع أولئك الذين ظلّوا حتى ذلك الحين في منأى عن الحياة والنضال الاجتماعي.

---

(١) **تارتوف** Tartuffe: شخصية مسرحية شهيرة، ألّفها موليير سنة ١٦٦٤، **تُجسّد النفاق الديني والأخلاقي**، إذ يظهر تارتوف بمظهر التقي الورع بينما يضمر الطمع والخداع. يورد غرامشي الاسم ساخرًا، لا بوصفه مرجعًا لغويًا للديماغوجية، بل كناية عن **الخطاب المتزمت الذي يُشيطن النضال الشعبيّ باسم الأخلاق**. فـ«المعنى الدقيق» الذي يتندّر به هنا هو ما يُشيعه أمثال تارتوف: أي أن **كلّ تحريض جماهيري على الوعي والتحرّر يُوصَم بالديماغوجية**، في حين أن غرامشي يعيد الاعتبار لها بوصفها أداة يقظة وتنظيم سياسي.

إنّ الديماغوجية لا تعني إذن وسيلة للدعاية، بل هي دعاية بحد ذاتها، دعايةٌ اشتراكية. الديماغوجية حكم أخلاقيٌّ لا يمكن أن يُنسب إلى السّطحية أو التهور أو الخفّة في تشكيل أيِّ قناعة أو حكمٍ؛ إنّها حقيقة تاريخية؛ إنّها الحركة المثالية التي فيها يتجلّى أوضحُ وجوه العمل التثقيفي للحزب الاشتراكي. هكذا يتلاعب تارتوف بالمفردات، ويمنح الكلمات مصيرًا. لقد أعاد كلمة «مكسِّر»[1] إلى مكانتها، وإلى الكلمة «ديماغوجية» نُبلَها. وفي المستقبل، حين تحوز الحركة الاشتراكية ما يكفي القوّة لتسِمَ اللّغة بميسمِها، وتختم عليها بختميها، ختم الخير والحريّة، ستصبح كلمة «مكسِّر» مرادفاً للنبيل، والنّبيل مرادفاً للمكسّر؛ وستصبح كلمة «ديماغوجية» دالةً على طريقة فعليّةٍ في السياسة والدعاية، قائمة على واقع الحقائق، وليس على أشدِّ المظاهر بريقاً، وبالتّالي أشدِّها خداعًا.

وفي انتظار أن نبلغ هذا اليوم المنشود، سنواصل استعمال الكلمة بمعناها القديم، ونواصل في استخدام نعتِ الديماغوجيين دلالةً على أولئك الذين يتوسّلون بالحِيَل المنطقية ليدّعوا الحقَّ والصّوابَ، والذين يزيفون الحقائق عمداً ليَظهروا مظهرَ المنتصرين، والذين يسلكون غير مسالك الصّدق، متلهّفينَ على الانتشاءِ بنصرٍ لحظيٍّ.

لقد وصفونا بالديماغوجيين لا لشيءٍ سوى أنّنا نحبُّ أن نسمّيَ تجار الأسلحة «أسماكَ قرش». ولفتوا انتباهنا إلى أنّ بعض

---

(١) يتعلّق الأمر بكلمة تنتمي إلى أدبيات النّضال الماركسي، وتشير إلى من يتعمّد تخريب منشئاتِ أثناء الانتفاضات، لاعتبارها جزءاً من قوّة النّظامِ القائم.

هؤلاء القروش يدفعون ألفي ليرة لصحيفتنا لكي تنشر إعلاناتهم. إنّنا «ديماغوجيّون» لأنّنا لا ننساق إلى تقييم الأمور بمعيار المنفعة. فلتحيا الدّيماغوجيّة إذن. نحن ديماغوجيّون لأنّنا نأبى أن نخلط الحابلَ بالنّابل. لأنّنا لا نخجل من أن تتلقى صحيفتنا ألفَي ليرة مقابل عقد إعلانيٍ أُبرِمَ في حريّة تامّة، طالما أنه يندرج في إطار المنافسة الحرّة مع بقيّة المُعلِنين؛ وفي الآن نفسِه نظلُّ على التزامنا وقناعتنا بأنّ هؤلاء البشر ينبغي أن يخجلوا من أرباحهم، وأنّ لنا أن نطلق اسم «قروشٍ» على أولئك الذين يستغلون مناصبَهم وغيابَ المنافسة لنهب الخزانة العامّة وفرض أسعارٍ تحقّق لهم الثراءَ المفاجئ، والتّقاعد المريح، من دون أيِّ جهدٍ سوى أنّهم اغتنموا الفرصة. لأنّنا لا ننطلق من المظاهر الخادعة، ولأننا لا نحكم على أساس الرّبح الفوريّ، نسمَّى ديماغوجيّين؛ ويسمّى الآخرون، خصومُنا، أناساً جادّين، وأساتذةً في فنِّ العيش. بهذا التّشويش على «المعنى الشّائع» للكلمة نعبّر عن سوء نيّتِنا، وعن وديماغوجيتنا. وحسبُنا هذه المساهمة في تغيير دلالة الكلمات في اللُّغة الإيطاليّة.

١٠ أكتوبر/ تشرين الأوّل ١٩١٧

الرّعاية ليست هبةً
إنّها حقٌّ (التّطبيب)

إنّ إيطاليا هي أرض الضيافة. وإنّ قلوبَ جميعِ الإيطاليّين أوسعُ من كاتدرائيات. إنهم يبكون ويتأثرون بالمشاهد المأساوية، ولا يبخلون بـ«كلمة طيبة» على كلِّ من وقع في محنةٍ. غير أنّ روح الإنجيل هاته لم تستطع أن تتحوّل إلى شكلٍ حديث من التضامن والتنظيم المدنيّ خُلوٍ من كلِّ أنانيّة. بل ظلّت تلك الروح شيئًا خارجيًا صرفًا، عرضاً راقصاً مبتذلاً وعديم الفائدة. إنّ مؤسسات التضامن الاجتماعيّ التي تُموَّل من أموال دافعي الضرائب، ليست سوى إقطاعيات دينية؛ المستشفيات، التي ينبغي أن تكون تجسيدًا ملموسًا للرّحمة الجماعية، هي فريسةٌ لجهات غير مسؤولة تحاول دفن الأهداف الإنسانية الخالصة للمؤسسات التي تقع تحت مسؤوليتها، بروحٍ من الطائفية والتعصّب.

تصلُنا رسائلُ مؤلمة من مرضى كانوا يعتقدون أنّهم سيدخلون المستشفى لينعموا بالراحة والهدوء. لقد أجبرهم العجز على التخلي عن عملهم؛ ولمّا كانوا على وعيٍ بما يمكن أن يشكّلوه من خطرٍ

على الصحّة العامّة، فقد لجؤوا إلى المستشفى؛ ظانّين أنّه «مأوى المرضى»، وأنّ العاجز اللاجئ إليه، لن يكون مطالباً بالتّخلّي عن حياته السّابقة، الحياةِ التي كان فيه مواطناً؛ وأنّه فقط ينتقل إلى مكانٍ جديدٍ سوف يعاملُ فيه معاملةَ فردٍ عاجزٍ يحتاج إلى مساعدة الجماعة. ظنّوا أن الأطباء مجرد مساعدينَ طبيّين يؤدون واجبهم المهني وفقًا للالتزامات التي تعهدوا بها تجاهَ صاحب العمل. وأنّ الممرضات نساءٌ يغُصن في أداء مهامهنّ، غافلاتٍ عن أيِّ شيءٍ سوى ما يفرضه عليهنَّ زيُّ الوظيفة التي اخترنَها بحريّة. والحالُ أنّ... العجزَ هو آخر ما يشغل بال الأطبّاء والممرضات. هناك تعلو الرّغبة في إبراءِ الرّوح على السّعيِ إلى شفاء الجسد. هناك تتقدّمُ الأفكارُ على البدن. كأنّما المريض لا يذهب إلى المستشفى؛ بل يدخل الدّير. يصير عرضة للابتزاز. يُجبَر المريض على قراءة الصحف التي تُرضي «رؤساءَه». وحين يعيل صبرُ العاجزِ وتفلت أعصابُه، يلفي نفسه خاضعاً لضربٍ من التعذيب [النّفسيّ]، سيلٍ من اللّمزِ واللّوم، ينغِّص عليه أيامَ راحته الطّويلةَ. ثمّة أمراض تستهلك اللّحمَ والدّمَ، لكنها تمنح الذّهنَ صفاءً هائلاً، و[إن كان] عليلاً؛ يكتسبُ المريض حساسية مفرطةً. فيعاني آلام بؤسِه كلَّ المعاناة. وفي أثناء ذلك، يمرُّ من أمامه الأطبّاءُ والممرّضون في برودٍ وتكلُّفٍ، ممّا يضاعفُ بؤسَه. وليس له أن يشتكي، ولا أن يطلب شيئًا. حتّى الرّعايةُ التي هي حقٌّ، تصبح هِبةً، صدقةً مُهينة، للمانح أن يعطيها أو أن يمنعَها. وما من رقيبٍ على أولئك الموظفين أو حسيبٍ؛ لا أحد يجبرهم على أداء واجبهم؛ أقلّه الواجب البيروقراطي، حتى وإن أبوا أن يغلّفوه بشيءٍ من اللباقة

والإنسانية. أمّا الأموال التي تُقتطع من جيوب دافعي الضرائب لتصبَّ في خزائن مؤسّسات الصحّة العامة، باسم واجب التضامن مع المحرومين، فإنّها تهدرُ في نشاط شيطانيٍ هدفُه اضطهاد الأفراد والأفكار. ما من هيأةٍ مسؤولة تتخذ تدابير أو تضمن الرّقابة، وتقدم على تحرير بعض المؤسسات من أشخاص غير جديرين، أشخاصٍ لا يتمتعون بأي حسٍّ بالمسؤولية، ويقرّرُون طردَ البائسين الذين لا جرم لهم سوى أنّهم اعتنقوا أفكاراً، وأنّهم كرّسوا طاقاتهم للتنظيم البروليتاري.

لكنَّ العرض الرّاقص مستمرٌّ. إنّ المستشفى هو المؤسسة الملموسة التي توفّر الرعايةَ للمرضى، لكنّه لم يصبح بعد مؤسّسة ديمقراطية تسعى إلى تحقيق أهدافها الخاصة. إنها رعاية عديمة الفائدة تتناسَب مع الدُّموع الصغيرة التي تُذرَف، والاحتجاجات التي تدعو إلى الشّفقة. رعاية لا تتّسم بأيٍّ طابعٍ من الاستمرارية أو التضامن المدنيّ.

٧ يناير/ كانون الثاني ١٩١٨

عمّال فيات
(رجالٌ من لحمٍ ودم)

لقد عاد عمّال فيات إلى العمل. خيانة؟ تنكّر للمثل الثورية؟ إنّ عمّال فيات رجالٌ من لحم ودم. صمدوا شهرًا كاملًا. كانوا يعلمون أنّهم لا يقاتلون من أجل أنفسهم فقط، ولا من أجل بقيّة عمّال تورينو فحسب، بل من أجل الطبقة العاملة الإيطاليّة بأسرها.

صمدوا شهرًا كاملًا. كانوا منهكين جسديًّا، لأنّ أجورهم -منذ أسابيع، بل منذ شهور- كانت تُقتَطع وتُقزَّم حتى غدت عاجزةً عن إعالة أسرِهم، ومع ذلك، صمدوا شهرًا كاملًا. كانوا معزولين تمامًا عن بقيّة البلاد، غارقين في مناخٍ عامّ يسوده التعب، واللامبالاة، والعداء - ومع ذلك، صمدوا شهرًا كاملًا.

كانوا يعلمون أنّ لا أمل لهم في عونٍ يأتي من الخارج؛ وكانوا يعلمون أنّ أوصال الطبقة العاملة الإيطاليّة قد قُطعت، وأنّ الهزيمة باتت حتميةً - ومع ذلك، صمدوا شهرًا كاملًا. لا عار في هزيمة

عمّال فيات. لا يمكن أن نطالب جماعةً من الرجال، تنهشهم أقسى ضرورات الحياة، ويتحمّلون عبءَ إعالة أربعين ألف نسمة، بأكثر ممّا قدّمه هؤلاء الرِّفاق الذين عادوا إلى العمل، في حزنٍ وأسى، وهم واعون تمامًا باستحالة مواصلة المقاومة، بل وحتى استحالة ردّ الفعل.

ولاسيّما نحن معشرَ الشيوعيين، نحن الذين نعيش إلى جانب العمّال، وندرك حاجاتهم، ونُحيط علمًا بواقع حالهم، نحن أولى النّاس بتفهّم الأسباب التي انتهى إليها نضال العمّال في تورينو.

منذ سنوات طويلة، والجماهير تخوض النضال، ومنذ سنوات طويلة، وهي تستنزف مواردَها وطاقاتها في تحرّكات جزئية. وذلك هو اللّوم الذي لن نكفّ، نحن في صحيفة لأورديني نوفو، عن توجيهه إلى القيادات المركزيّة للحركة العمالية والاشتراكية منذ نهاية شهر مايو ١٩١٩: لا تُفرطوا في استنزاف قدرة البروليتاريا على المقاومة، ولا تسيئوا استغلال فضيلتها في التضحية. إنّ العمّالَ رجالٌ عاديّون، رجالٌ كسائر البشر، رجالٌ يعانون نفس مكامن الضعف التي يعاني منها كلّ الرّجال الذين نراهم كلّ يوم؛ الرجال الذين نصادفهم في الحانات يشربون، وفي الساحات يتحدّثون؛ الرجال الذين يكابدون الجوع والبرد، ويألَمون حين يسمعون بكاء أطفالهم أو حين ترتفع حناجرُ نسائهم بالشكوى.

لطالما كان تفاؤلُنا الثوريّ مشدودًا إلى هذه النظرة المتشائمة، القاسية، إلى الواقع البشري، تلك النظرة التي لا مهرب من مواجهتها

ومحاسبتها. [...] قبل عامٍ من الآن، كنّا قد تنبّأنا بالمآل الحتميّ الذي ستؤول إليه الأوضاع في إيطاليا، إذا ما استمرّ القادة المسؤولون في اتّباع نهجهم ذاك، نهج الضجيج الثوري والممارسة الانتهازية. وقد ناضلنا، بيأسٍ وعناد، لنُعيد هؤلاء المسؤولين إلى رؤيةٍ أكثر واقعية، وممارسةٍ أنسَب وأوفى بما تقتضيه مجريات الأحداث.

واليوم، ها نحن أولاء ندفع ثمن عجز الآخرين وعمى بصيرتهم؛ واليوم، تتحمّل البروليتاريا التورينية الصدام مع العدوّ، وقد اشتدّ عودُه بفعل لا مقاومة الآخرين. لا عارَ في استسلام عمّال فيات. لا مناصّ من أن يقع ما وقع. لقد سُحقت الطبقة العمالية الإيطاليّة تحت مدحلة الرأسمالية. إلى متى؟ لم يفُت الأوانُ، ما دامت الضمائر حيّة، والإيمان سليمًا، وما دام استسلامَ الأجساد لا يستلزم استسلامَ الأرواح.

لقد ناضل عمّال فيات، سنينَ طوالًا، بكلّ ما أوتوا من عزم، ورَوَوا بدمائهم الشوارع، وتحمّلوا الجوع والصقيع. وهم، بهذه الخلفية المجيدة، يظلُّون في طليعة البروليتاريا الإيطاليّة، ويظلُّون جنودًا أوفياء، مخلصين للثورة. لقد فعلوا كلّ ما في وسع رجالٍ من لحمٍ ودمّ أن يفعلوه. فلنرفع قبّعاتنا إجلالًا لمهانتِهم، ففيها -حتّى فيها- شيءٌ عظيم يفرض نفسَه على كلّ صادقٍ وكلّ شريف.

لورديني نووفو، ٨ مايو/ أيار ١٩٢١

II

السّياسة والسّاسة

ملاحظات من أجل المستقبل
(هوامش)

١.

إن الجهد المبذول لبلوغ الحقيقة يشعرنا بأنّ الحقيقةَ نفسها هي جزءٌ منّا، وإن لم نسهِم في صياغتِها الجديدة، وحتّى لو لم نضف إليها أيَّ لمسة شخصية. لهذا ترانا ننتحلُ أفكارَ الآخرين بلا وعي، ولهذا أيضاً ينتابنا إحباطٌ كبيرٌ إزاء البرود الذي تستقبلُ به بعضُ أفكارنا، وقد حسبنا أنّ من شأنها أن تُحدث تغييرًا، وأن تثير الحماسَ. يا صديقي، لا تنفك تتردّد على أسماعِنا عبارة: «لقد اكتشفتَ بيضة كولومبوس»[١]. حسناً، أقول لك إنّني لا يهمني أن اكتشِفَ بيضة كولومبوس؛ فأنا أفضِّل تكرار حقيقة معروفة بالفعل على أن أنكِّلَ

(١) بيضة كولومبوس: تعبير يُستخدم للإشارة إلى فكرة تبدو بسيطة أو بديهية بعد كشفها، لكنها لم تكن كذلك قبل ذلك، وغالبًا ما تُقال للإشادة بعبقرية حلّ ما أو تبسيطه الجذري. يرجع أصل التعبير إلى قصة شهيرة تُروى عن كريستوفر كولومبوس: بعد عودته من رحلته التي قادته إلى «اكتشاف» أمريكا، اتّهمه بعض النبلاء بأن ما فعله كان سهلًا، وأنّ أيّ أحد كان بإمكانه فعله. ردّ كولومبوس بوضع بيضة على الطاولة وطلب منهم أن يوقفوها على رأسها، فعجزوا. عندها نقر طرف البيضة نقرًا خفيفًا فوقفَت، وقال: «الأمر سهل... بعد أن تراه».

بذهني في سبيل ابتكارِ مفارقات بارعة، وألاعيب لغوية دقيقة، وبهلوانياتٍ لفظيةً تثير الابتسام، ولكنها لا تحثُّ على التفكير.

إذا ما كان الحساء الشعبي القديم هو الأنفَعُ غذاءً، والأشدُّ جاذبيّةً، فإنّما مردُّ ذلك إلى أنه يُحضّر ممّا بين أيدينا من خضروات. أَحَبُّ إلى نفسي أن أرى رجالًا أقوياء مفعمين بالعصارة المغذيّةِ، يعُبُّونَها عباً بملاعق كبيرة؛ فالمستقبلُ طوعُ هؤلاءِ، يمتلكونَه بصلابةِ إرادتِهم وقوّة عضلاتهم. لن نكفّ عن ترديدِ أكثر الحقائق مدعاةً للحزن، ما لم تتحوّل هذه الحقيقةُ إلى قاعدةٍ وإلى مهمازٍ يحثُّ البشر طُرّاً على العمل.

٢.

حين تناقِشُ خصمَك، حاول أن تلبَس جلدَه، وسوف تفهمه على نحوٍ أفضل؛ وربما أدركتَ في نهاية المطاف أنّه ليس مخطئًا تمامًا، بل قد يكون على حقٍّ. تلكُم نصيحةُ الحكماء التي اتبعتُها دهراً. لكنّني ما لبثُّ أن أدركت أن جلودَ خصومي كانت من البغضِ أنْ أوصلتني إلى الاستنتاج التالي: أن عليك أحيانًا أن تكون ظالمًا على أن تتحمّلَ، مرةً أخرى، مشاعر الاشمئزاز التي تُفقِدُك الوعي.

٣.

لقد غدت حقيقةُ أنّ عدداً من المثقفين المزعومين (وبالمناسبة، هل ما تزال كلمة «مثقف» تعني «ذكي»؟) قد هجروا الاشتراكية، دليلًا لدى كثير من الحمقى على الفقر الأخلاقي لفكرنا. والحالُ أنّ هذا الارتداد قد حدثَ، وما يزال يحدث، مع الوضعانية،

والقومية، والنّزعة المستقبلية، وغيرها من الأيديولوجيات. ثمّة «أبناءُ الأزمات»، أولئك الضعفاء الباحثون عن موطئ قدم، الذين ينقضّون على أوّلِ فكرةٍ تعرض لهم، وتبدو لهم تجسيداً للمَثل الأعلى، فيقتاتون عليها، طالما يسعفُهم الجهدُ في محاولة الاستيلاء عليها، فمتى ما بلغوا غايةَ جهدهم، وأدركوا (والحقُّ يُقال: بباعثٍ من ضعفهم الفكري، وافتقارهم إلى الدقّة) أنّها لا تستوفي كلَّ شيءٍ، وأنّ ثمّة مشاكل لا حلول لها (إن كانت ثمّة حلول لها) إلّا خارج هذه الأيديولوجيا (وربّما تكون تلك الحلول مرتبطةً بها في مستوى أعلى)، تراهم يهرولون إلى أيَّ شيء آخرَ يتوهّمون فيه الحقيقة، شيءٍ يمثل مجهولًا جديدًا، ويوفّر بالتالي فرصةً جديدة للرّضا. إنّ النّاس نزّاعون دائمًا إلى البحث خارج أنفسهم عن سبب إخفاقاتهم الرُّوحية؛ ولا يريدون أبدًا أن يقتنعوا بأنّ السّبب هو، دائمًا وأبداً، ضعفهم ووهن شخصيتهم ومحدودية ذكائهم. ثمّة تهافتٌ في الإيمان كما ثمّة تهافت في المعرفة.

وهذا في أفضل الأحوال. بالنّسبة إلى الأغلبية، ليست أزمة الضّمير سوى سَندات مستحقة أو رغبة في فتح حسابٍ جَارٍ.

٤.

قيل إنّ اشتراكيةَ إيطاليا هي الأسوأُ في أوروبا. حسناً: هكذا تكون إيطاليا قد نالت الاشتراكية التي تستحقُّها.

٥.

لا يعني التقدّم، في جوهره، سوى توسيع نطاق المشاركة في الخير، ليشمل عددًا متزايدًا من البشر. إنّ الأنانية هي شكلٌ من الجماعية، لكنّها جماعيةُ الشهواتِ والحاجاتِ الفردية. أمّا الجماعيةُ، فهي أنانيةُ جميع بروليتاريّي العالم. فليس البروليتاريون من دون شكّ أهلَ إيثار، إن فهمنا الإيثار كما يفهمه الإنسانيُّون المائعون. غير أنّ أنانيةَ البروليتاريا تَسمو، لأنها مشروطةٌ بوعيهم بأنّهم لا يستطيعون إشباعَها حقًّا، ما لم يُشبعها معهم سائرُ أبناء طبقتهم. ولهذا، فإنّ أنانية البروليتاريا تُفضي، منذ البدء، إلى تضامنٍ طبقي.

٦.

قيل: إنّ الاشتراكية ماتت، في اللحظة ذاتها التي أمكن فيها إثبات أن المجتمع المستقبليّ الذي زعمَ الاشتراكيون أنهم على وشك إقامته، لم يكن سوى أسطورة موجّهة إلى الجماهير. وأنا أيضًا أعتقد أنّ الأسطورة انتهت إلى التلاشي في العدم. لكنّ تلاشيها كان ضرورة. لقد نشأت تلك الأسطورة حين كانت الخرافة العلميّة ما تزال حيّة، وحين كنّا نثق ثقةً عمياء في كلّ ما يضاف إليه النّعت «علميّ». وكان السّعي إلى بلوغ ذلك المجتمع النموذجيّ بمثابة مُسلَّمةٍ من مسلّمات الفلسفة الوضعيّة، أو الفلسفة العلمِيّة. لكن مثل هذا التصوّر لم يكن علميًّا البتّة؛ كان تصوّرًا آليًّا صرفًا، ميكانيكيًّا صارمًا. ويكفي أن ننظر إلى أثره الباهت في الإصلاحية النظريّة (حتى مجلة النقد

الاجتماعي[1] لم تعد تحمل تسميةَ الاشتراكيّة العلمية) عند كلاوديو تريفيس[2] التي لا تعدو أن تكون هراءً من هراء الحتميّة الوضعيّة، هراء يجِد شروطَ إمكانه في الطّاقات الاجتماعية للإنسان و«الإرادة»، شروط مجرّدةٌ أشدَّ ما يكون التّجريد: مبهمة، ولا معقولة: تصوّرٌ صوفيٌّ جافّ، يخلو من أيّ دفعةِ شعورٍ بالألم. تلكم رؤيةٌ ورقيَّة للحياة، رؤيةُ كتبٍ، ترى وحدةَ الأثر، ولا ترى تعدديّةَ الإنسان، ذلك الإنسان الذي لا تتحقّق وحدته إلا باعتباره تركيبًا حيًّا. عند هؤلاء، تبدو الحياة أشبه شيءٍ بانهيارٍ ثلجيّ يُشاهَد من بعيد، انهيار لا يُقاوَم، ولا سبيل إلى وقفه. يسأل الإنسانُ الضّئيلُ: هل أستطيع إيقاف هذا الانهيار؟ لا؟ إذًا هو لا يخضع إلى أيِّ إرادة. لأنّ «الانهيار البشري» لا يخضع إلى منطقٍ لا يتوافق دائمًا مع منطقي الشخصيّ، ولأنّني -أنا الفرد الأعزل- لا يستطيع أن أوقفه أو أغيّر مسارَه، فإنّني أُقنع نفسي بأنّ ما من منطقٍ داخليٍّ يحكمُه، وأنّه لا يتبع إلّا قوانين طبيعية صارمة لا تُكسر.

---

(١) النقد الاجتماعي Critica sociale مجلة إيطالية اشتراكية تأسست في القرن التاسع عشر، حملت في بدايتها عنوان «مجلة الاشتراكية العلمية» تعبيرًا عن ولائها للوضعيّة الماركسية الكلاسيكية. غير أنّها، مع مرور الزمن، تحوّلت إلى منبر للإصلاحية الليبرالية، وتخلّت عن تسميتها الأصلية، وهو ما رآه غرامشي دليلًا رمزيًا على تفكّك الأسطورة الوضعية الاشتراكية القديمة.

(٢) **كلاوديو تريفيس** (١٨٦٩-١٩٣٣) Claudio Treves مفكّر إيطالي وقيادي اشتراكي معتدل، عُرف بميله إلى الإصلاحية وبتبنيه تيار الاشتراكية البرلمانية، وقد تباعد فكره تدريجيًا عن النزعة الثورية، ممّا جعله عرضة للنقد لدى رموز الماركسية النقدية كغرامشي، لا سيما بسبب ما اعتبره غرامشي خضوعًا للحتمية الوضعية وتخلّيًا عن مركزية الإرادة السياسية.

لقد شهدنا انهيارَ العلم، أو لنقُل بدقّة أكبر: لقد انكفأت العلوم على الوظيفة الوحيدة التي تُركت لها. انهارت الثقة العمياء التي كان النّاس يضعونها في استنتاجاتها، وماتت الأسطورة التي ساهمت بنفسها في صنعها. لكنّ البروليتاريَّ لم يمت. لقد تجدّدَ. ولا خيبة قادرة على أن تميت قناعاته، كما أنّ لا صقيعَ يقدر أن يميت نبتةً تنبضُ بالعصارة الحيّة. لقد أعاد البروليتاريُّ النّظرَ في قواه، وفي القوى التي يحتاجها ليبلغ أهدافه. وقد نَبُلَ إذ استوعَب صعوبة الطريق، وشرع في إعداد نفسه لمواجهة التضحيات الجِسامِ التي بات يراها رأيَ العين. شهدنا سيرورة استيعابٍ: لم يعد العاملُ في التّاريخ شيئًا خارجيًّا، بل تحوّل إلى الداخل. [وهذه قاعدة:] بعد كلّ طورٍ من التوسّع، لا بدَّ أن يأتي طور من التّكثيف.

وقد حلّت إرادة الإنسان العنيدة محلَّ القوانين الطبيعيّة، ومحلّ حتميّة الأشياء ذات الحظوة لدى أنصاف العلماء.

إنّ الاشتراكية لم تمت، ما دام الشّرفاءُ بالنّسبة إليها ما يزالون أحياء.

٧.

لطالما استُخِفَّ، وما يزال يُستخَفُّ، بقيمةِ العدد، بحجّة أنّها قيمة ديمقراطية فحسب، لا ثورية؛ أي أنّها قيمة صندوق الاقتراع، لا المتراس. لكنّ العدد، الكتلة، هو ما أتاح خلق أسطورة جديدة: أسطورة الشمول، أسطورة المدّ الذي لا يُقاوَم، ذلك المدّ الذي يصعد بصخبٍ، ويجتاح المدينةَ البورجوازية، المدينة القائمة على

أعمدة الامتياز، فيجتثُّها من أساسها. إنّ العدد، الكتلة، (هؤلاء الكُثُر في ألمانيا، وفي فرنسا، وفي أمريكا، وفي إيطاليا... الذين ما ينفكُّ عددهم يتزايدُ، وينضمون إلى الكتلة، ويتضاعفون عاماً عن عام...) هو ما رسّخ لدى كلِّ فردٍ القناعةَ بأنّه يشارك في أمرٍ جلَلٍ، في أمرٍ يتخمّر، وأنّ كلَّ أمةٍ، وكلَّ حزب، وكلّ فرع، وكلّ مجموعة، وكلّ فردٍ، ليس سوى جزيئة من ذلك الكلّ، جزيئةٍ تتلقَّى العصارة الحيويّة ثمّ تعيد ضخّها في الجسد الاشتراكيّ العالميّ، لكِن بقدرةٍ أكبر، وطاقةٍ أغنى. وكما أنّ ملايينَ الكائنات المجهرية التي تسبح تحت سطح المحيط الهادئ تنسج في عمق البحر حيِّداً مرجانياً لا يُحدُّ، فإنّ ملايين الاشتراكيِّين المبعثرين في هذا العالم يبنون هم أيضًا قارةً جديدة: وإنّ الزلزال...[1].

٨.

أسهل أن تقنع من لم يسبق له الانخراط في الحياة السياسية، من أن تقنع من سبق له الانتماء إلى حزب راسخٍ، عريقِ التّقاليد. ما أقوى ما تُمارسه التقاليد من سطوةٍ على النّفوس! حين يتحوّل الكَهنوتي، والليبرالي، إلى اشتراكيين، فإنّهما يكونان بمثابة قنابلَ موقوتة، قنابلَ قابلة للانفجار في أيّ لحظة، وقد يخلّف انفجارها عواقب مميتة على رفاق الطّريق. أمّا أنفُس الفلاحين النّقيةُ، فإذا ما اقتنعَت بحقيقةٍ، وضَحّت في سبيلها، فإنّها تبذل قصارى جهدها لتحقيقها في الواقع. وأمّا المتحوّل الذي اهتدى إلى الاشتراكية

(١) حذفت الرّقابة سطرين تقريباً.

بعد تجربةٍ سابقةٍ، فيبقى دومًا نسبيًّا في نظرتِه، لأنّه جرّب من قبلُ، وأدرك كم يسهل أن يُخطئ المرءُ في اختيار درب حياته. ولهذا، يبقى في قرارة نفسه شيء من ريبةٍ. والمشكِّك تعوزُه بالضرورة شجاعةُ الفعل.

لذا، أنا أفضّل أن أرى فلاحًا يدنو من الحركة على أن أرى أستاذَ جامعةٍ ينضمّ إليها. على أنّ ذلك يظلُّ مشروطاً بأن يسعى الفلاح إلى اكتساب ما للأستاذ من خبرةٍ واتساعِ أفقٍ، حتى لا يصيبَ أفعالَه، وتضحياته، ضربٌ من العقم.

٩.

تسريع المستقبل. تلك هي الحاجة الأشدّ إلحاحاً من بين كلّ الحاجات التي تشعر بها الكتلةُ الاشتراكية. لكن، ما «المستقبل»؟ هل هو موجود حقًّا بوصفه شيئًا ملموسًا؟ إنّ المستقبل ليس سوى إسقاطٍ نحو الأمام؛ تحقيقٍ مسبق لإرادةٍ تكون قد غيّرت المحيطَ الاجتماعيَّ في الحاضر. لذلك، فإنّ تسريعَ المستقبل لا يعدو أن يعني أحد أمرين: إمّا أن نكون قد نجحنا في توسيع هذه الإرادة، بحيث تشمل عددًا كافيًا من النّاس، فيكون ذلك تقدّمًا كَمّيًّا. وإمّا أن نكون قد جعلنا هذه الإرادة شديدةَ الكثافة، شديدةَ التّركيز في الأقليّة الموجودة الآن، حتى يمكننا صياغة المعادلة التالية: ١,٠٠٠,٠٠٠=١. وذلكم هو التقدّم الكيفي. أن تصهر روحك كالحديد حتى تتوهّج، وتتفجّر منها آلاف الشرارات. ذلك هو المطلوب [...]. أمّا أن تمكث منتظراً اللحظةَ التي تُصبح فيها

«النّصفَ زائد واحد»؟ فذلك برنامجُ النفوس الجبانة، النّفوس التي تنتظر أن تنزل عليها اشتراكيةٌ بقَرارٍ من مرسومٍ ملكيّ، ممهورٍ بتوقيع وزيرَيْن.

١١ فبراير/ شباط ١٩١٧

كل شيء على ما يرام
(سَحَرة ومَسحورون)

ما أكثر السَّحَرة[1] في هذه الدّنيا!

سحَرةٌ، أولئك الدبلوماسيُّون الذين يوهمون النّاس أنّهم يصنعون أمورًا جليلةً، لا لشيءٍ سوى أنّهم يتصنّعون الجلالَ.

سحرةٌ، أولئك السوَيِّسون[2] الذين ينطبق عليهم تعليق فيغارو[3]: يتظاهرون بجهل ما يعرفون، وبمعرفة ما يجهلون،

---

(١) يستعمل غرامشي هنا لفظ «السحرة» بمعناه المجازي التهكّمي، قاصدًا به أولئك الذين يمارسون التعمية السياسية، ويستبدلون الحقيقة بالمظهر، سواء أكانوا دبلوماسيين يتصنّعون الوقار، أم صحفيين يجمّلون الخراب، أم سياسيين يتقنّعون بالعمق وهم خواء. «الساحر» في هذا السياق لا يضلِّل بالعقل، بل يُخدّر الحواس ويملأ المشهد بـ«الإيهام بالتأثير». وهو في الغالب شخصية خطابية أو رمزية، لا تُقاس بخطورتها الفعلية، بل بقدرتها على التمويه وخلق التصفيق المؤجَّل. إنّ السحر هنا، هو البلاغة المزيفة حين تُستعمل لتبرير العجز والخيانة.

(٢) تصغير «سياسيين» للتّحقير!

(٣) فيغارو شخصية خالدة من مسرحيات بومارشيه، ولاحقًا أوبرا موزارت (زواج فيغارو). يُجسّد فيغارو الذكاء الشعبيّ الساخر، وكان لسانًا لاذعًا في نقد نفاق الطبقات الحاكمة. والعبارة التي يُلمح إليها غرامشي هنا مستلهمة من هجاء فيغارو للسياسيين: «يظنون أنفسهم عميقين، وما هم إلا خواء».

يغلقون على أنفسهم الأبواب، ويتأمّلون الجريدة، يوحون بالعمق، وما هم إلّا خواء، يدفعون للوشاة، أو يوصلونَ الرسائل، ويحاولون أن يغطّوا دناءةَ الوسائل بِنبل الغايات.

سحرةٌ، أولئك الاستراتيجيون من أبناء الصالونات وصفحات التحرير، الذين يتزيّنون بثياب الجنود، لأنّهم لم يقتربوا من الجبهة يومًا.

سحرةٌ، أولئك الرُّقباء الرسميُّون الذين يظنون أنهم، بتخفيف العبارات، يستطيعون محو الوقائع.

سحرةٌ، كلُّ أولئك الذي يحشون الأذهانَ بالترّهاتِ، ويصيحون: «كلّ شيء على ما يرام!» والحالُ أنّ الأمور في أسوأ حال.

سحرةٌ، أولئك المتاجرونَ بالشوفينية الذين يخوضون «بطولاتهم» بعيدًا عن الجبهة، في خنادق وديعة، ثم يتحدّثون مستعملين ضمير «نحن»، حين يتكلّمون عن الجنود الحقيقيين.

سحرةٌ أولئك الرّجعيون الديمقراطيّون الذين يظنون أنّهم قادرون على إلغاء الفعل الاشتراكيّ بمرسومٍ، ويشبهون ذلك المجنون الذي ظنّ أنه يُعاقب البحرَ، حين جلده بالسوط!

(لكن، إن كان السحرة يملؤون الخشبة، فإن عدد المسحورين في القاعة آخذٌ في النُّقصان. ومن مقصورة[1] الاشتراكيّين... الابتساماتُ

---

(١) في المسرح الإيطاليّ، la loge (المقصورة) تشير إلى الجناح العلوي المخصص لكبار الحضور أو الضيوف الدائمين. يستعير غرامشي هذا المشهد المسرحي ليجعل من

آخذةٌ في الارتسام).

١٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧

الاشتراكيين جمهورًا يقظًا، يرى الفصول الهزلية ويفهم مغزاها، ويبتسم لا سخرية، بل ثقة في انكشاف اللعبة.

لا تسامح مع العبث
(الصّارِم المتسامح، والمتسامح المتهاون)

تتمثّلُ الصّرامة في رفض الوسائل التي لا تليق بالغاية، أو التي تُخالف طبيعتها. والصّرامةُ هي السّمة الملازمة للشخصيّة الواعية. إنّها البرهان الوحيد على أنّ جماعةً ما موجودة بالفعل، بوصفها كيانًا اجتماعيًّا حيًّا، يخضع لغايةٍ موحّدة، وإرادةٍ جامعة، ونضجٍ في الفكر. ذلك أنّ الصرامة تفترض أن يكون الجزءُ في انسجامٍ مع الكلِّ، وأن تُبنى كلّ لحظة من لحظات الحياة الاجتماعية على نحوٍ متّسق، وأن يكون كلّ شيءٍ قد خضع للتفكير المسبق. إنّ الصّرامة تفترض وجودَ مبادئ عامّة، واضحة، ومتمايزة، وأن يكون كلّ ما يُنجَز، خاضعًا لتلك المبادئ ومُستمدًّا منها.

وعليه، حتى يكون بمقدور جماعةٍ اجتماعيةٍ ما أن تُضبط انضباطًا صارمًا، ينبغي أن تكون خاضعة لإرادة (أي لغايةٍ محدَّدة)، وأن تكون هذه الغاية عقلانيَّة، أي أن تكون غايةً واقعيّةً، لا وهمًا متوهَّمًا. غير أنّ هذا لا يكفي: إذ لابدّ أن يكون جميع أعضاء الجماعة مقتنعين بعقلانية هذا الهدف، حتى لا يجرؤ أحدٌ على التنصّل من

الالتزام به والخضوع إليه؛ وحتى يكون مَن يُطالب الآخرين بالانضباط، إنّما يُطالبهم بذلك بوصفه التزامًا اختاروه طوعًا، لا بل بوصفه التزامًا ساهمَ حتّى أشدّهم عنادًا في صياغتِه وتحديده.

ومن هنا، يمكننا أن نفهم، انطلاقًا من هذه الملاحظات الأولى، أنّ الصرامةَ في الفعلِ تفترض، لزوماً وطبيعةً، تسامحًا واسعًا في التّداول الذي يسبق اتخاذ القرار.

فالتّداول الذي يُدارُ جماعيًّا، ينبغي أن يُدار بعقلٍ. لكن، هل يمكن للجماعة أن تعكسَ العقل؟ من البيّن أنّ الفردَ أسرع في التوصّل إلى العقل والصواب من الجماعة، لأنّ الفرد قد يكون من بين الأفضل، من بين أولئك القادرين فعلاً على التعبير عن العقل. أمّا الجماعة، فتتكوّن من عناصر متنوّعة، ليسوا جميعًا على نفس الدرجة من الاستعداد لفهم الحقيقة، ولا لتطويرِ المنطق الذي يوصل إلى الهدف، ولا لتحديد المراحل التي ينبغي عبورها من أجل بلوغه.

كلّ ذلك صحيح. لكن صحيح أيضًا أنّ الفردَ قد يغدو طاغية، أو يبدو كذلك، وأنّ الانضباط الذي يفرضه الفردُ قد يتفكّك إذا رفضته الجماعةُ، أو إذا لم تفهم الجماعةُ فائدةَ الفعل؛ أمّا الانضباطُ الذي تفرضه الجماعةُ على أعضائها، مهما أبطأَ تطبيقُه، فإنّ نتائجَه قلّما تكون خاطئةً عند التنفيذ.

لهذا، ينبغي لأعضاء الجماعة أن يتوافقوا، أن يتداولوا. ولابدّ من أن تؤدّي هذه المداولة إلى التحامٍ بين الإرادات والضمائر. ذاك

أنّ العناصر الجُزئية للحقيقة، تلك التي قد يحمِلها كلّ فرد، يجب أن تتوحّد في حقيقةٍ مركّبة، تمثِّل تعبيرًا متكاملًا عن العقل.

ولتحقيق ذلك، وحتى تكون المداولة كاملةً وصادقة، فإنّ أقصى درجات التسامح تَغدو ضروريّة. يجب أن يتيقّن الجميعُ أنّ ما يؤول إليه التداول هو الحقيقة، وأنّه لهذا السبب بالذات، لا بدّ من ترجمتِه إلى فعلٍ. وفي لحظة الفعل، ينبغي أن يكون الجميع على وفاقٍ وتضامنٍ، لأنّ توافقًا ضمنيًّا قد تكوّن خلال التداول، ولأنّ الجميع سيكون مسؤولًا عن الإخفاق، إن وقَع إخفاقٌ. فالمرء يملك الحقّ في أن يكون صارمًا لحظةَ الفعل، لأنّه كان متسامحًا خلال التداول، وقد ساعدَ الأقدرُ بين الحاضرين الأقلَّ قدرةً منهم على فهم الحقيقة، وتقاسمت الجماعةُ تجاربَ أفرادها، وتأمّلت في جميع أوجه المسألة، ولم تُخلق فيها أيُّ أوهامٍ. فالنّاس يكونون مستعدّين للفعل، حين يقتنعون بأنّهم على اطّلاعٍ بكلّ شيءٍ، أنّ لا أحد تعمّد إخفاء معطياتٍ عنهم، أو استغلّ غفلتهم ليزرع فيهم أوهاماً. وإن طُلب منهم أن يضحّوا، وجبَ أن يعلموا أوّلًا أن هذه التضحية ضروريّة. وإذا قيل لهم إنّ الفعل سيقود إلى النصر، فلأنّ حسابًا دقيقًا قد أُجري لاحتمالات النَّصر والهزيمة، وثبت أنّ كفّةَ النّصرِ أرجح. وإن قيل لهم إنّ الفعل سيقود إلى الهزيمة، فلأنّ احتمالات الهزيمة رجحَت بعدما خضعت للنّقد الصريح، شريطةَ أن يكون هذا النقد قد تمّ جماعيًّا، دون مناورة، ودون إكراهٍ، ودون قفز على المراحل، ودون ابتزازٍ أخلاقيّ.

ومن البيّن أنّ هذا التسامح - أي الطريقة المتّبعة خلال المداولات بين أناسٍ هم، في الجوهر، متوافقون، ويُفترض فيهم أن يُنَسّقوا فيما بينهم مبادئ العمل الذي سيُنجزونه معًا - لا علاقة له بالتسامح في معناه الشائع. فمتى تيقّنتَ أنّ أحدًا ما على خطأ، وهو، على خطئه يتعنّتُ في رفض الحوار، ولا يريد أن يُقيم حججه، متذرّعًا بأنّ من حقّ الجميع أن يُفكّر كما يشاء - فلا معنى للتسامح.

إنّ حريّة الفكر لا تعني حريّة التّخبّط والهذيان. لسنا نرفض التعصّب حين يكون عن مداولاتٍ عقلانيّة توافقيّة، بل نرفضه فقط عندما يكون وليد الاستبداد، أو عبادة الأشخاص، لأنه حينئذٍ يُعطّل إمكان الوصول إلى توافقاتٍ ملزِمة، ويمنَع قيامَ قواعدَ للفعل تتمتّعُ بقوة أخلاقية، قواعدَ تنبع مشروعيّتُها من كون الجميع قد أسهموا طوعًا في صياغتها. إنّ هذا الشّكل من التعصّب ينتهي، لا محالة، إلى التهاون، ثم إلى التردّد، ثم إلى انهيار البُنى الاجتماعية.

٨ ديسمبر/ كانون الأوّل ١٩١٧

III

تعليم الإيطاليّين

امتيازات المدارس الخاصة
(من أجل حريّة المدارس وحريّة أن نكون حميزًا)

يتحدّث المتديّنون كثيراً، وبحماسة مفرطة، عن «المدرسة الحرّة». ألا لا ينخدعنَّ القرّاءُ بأحاديثهم. فـ«الحريّة» في أفواههم لا تعني نفسَ ما تعنيه عند من يُعمِل فكرَه ولا يَرتهِنُ للدّين. إنّ «المدرسة الحرّة» تعني، في لسان القوم، حريّة أن يكون المرء حماراً، مع تمتُّعه بجميع الحقوق التي تُمنح لمن نال قسطًا من التعليم. إنّ عبارة «في سبيل المدرسة الحرّة» ليست سوى راية براقة يُراد بها التغطية على مضاربةٍ اقتصاديّةٍ سمينة، بقدر ما هي طائفية ومتحيّزة.

تَزدهر المدارس الدينية الخاصّة في إيطاليا ازدهارًا مبهراً؛ إذ لا قانون يَحول دون انتشارها أو يقيِّد حريّة نموّها. إنّها تُنافس المدارسَ العمومية بكلّ حريّة. فإن كانت أفضل، وإن كانت تُقدّم لمن يتعلّم فيها تكوينًا أجودَ من ذاك الذي تُقدّمه المدارسُ العمومية، فلتتكاثَر ما طابَ لها التكاثُر، ولتَفرِض ما تشاءُ من رُسوم، ما دام القانون يعترف بحقّ أيٍّ كان في اقتناء ما يشاء من بضاعة تُسمَّى «تعليمًا».

غير أنّ البضاعة المسماة «تعليمًا» لا قيمة كبيرة لها في إيطاليا، حتى وإن كانت باهظةَ الثمن. ما له القيمة فعلاً هو «المُؤهِّلُ»، والمؤهِّل -في المقابل- لا يُكلِّف كثيراً. وهنا تبدأُ آلام الكهنة. إنّ من يمتلك مؤهّلاتٍ يبيعها أساسًا للدولة، والدّولة تشتريها مغمضةَ العينين؛ لا لأنّها تثق في قيمتها الفعلية، بل لأنّها تريد أن تحتفظ، بأيِّ ثمن، بحقّ التحكّم التامّ في مصدرها. فالدّولة، من حيث الجوهر، مستعدّة دائمًا لشراء المؤهّلات، شرط أن تكون صادرةً عن مؤسسات تعتمدها هي بنفسها.

لقد تعمّدنا استعمال لغةٍ اقتصادية، كي نُبرِز بوضوح أنّ القضية التي تثير حفيظة رجال الدين ليست سوى قضية اقتصادية صرف. فهؤلاء يريدون أن يبيعوا الدّولة ما أمكنهم من «بضاعة فاسدة». إنهم يرومون نيلَ «حريّة» ليست سوى امتياز خالص لهم، امتيازٍ يُمنَح لطلبة المدارس الدينية على حساب المجتمع. إنهم لا يكتفون بسكّ عملةٍ تمرّ عبر قنوات المعاهد المعتمدة من طرف الدّولة، وتنال الاعترافَ بأنّها نقدٌ قانونيٌّ، بل يريدون أكثر من ذلك؛ يريدون أن يسكّوا عملة مزيفة، كثيراً من العملة المزوّرة، ليغرقوا بها السوق الإيطاليّة كلّها. ويريدون علاوةً على ذلك أن يعترفَ بها القانون، وأن تعترف بها الدّولة وتقبلَها إداراتُها، وأن تعترف بها أيضًا الإداراتُ الخاصة التي ما تزال ترفض أيَّ تبادلٍ للقيمِ سوى تلك المُعترَف بها رسميًا. وهذا النَّصبُ والاحتيال هو ما يطلق عليه رجال الدين اسم «المدرسة الحرّة».

وجّه المجلسُ التنفيذي لاتحاد Pro Schola Libera (من أجل مدرسةٍ حرّة)، مؤخّراً، رسالةً مفتوحةً إلى الوزير روفيني، عبْر صفحات الجرائد التابعة للتكتل الكاثوليكي، يُعلِن فيها عزمَه على شنّ هجوم جديد ونهائيّ ضدّ جهاز الدّولة. لقد أضفى سياقُ الحربِ المشروعيةَ على عددٍ كبيرٍ من التدابير الوزاريّة التي قوَّضت، أكثر من أيّ وقت مضى، جدّيةَ المدرسة وصرامتَها. ويأمل رجالُ الدّين أن يستغلّوا هذا الموسم من الحصاد العامّ ليظفروا، على نحوٍ قاطعٍ ونهائيٍّ، بتلك الامتيازات التي منحَها لهم، سابقاً، غباءُ الوزارة، على سبيل الاستثناء. لقد ألغت الوزارةُ كلَّ رقابة فعليّة على منح الشهادات الدراسيّة. لكنّ الرأيَ العام سيفرض غدًا، لا محالة، عودة هذه الرّقابة؛ فالمؤسّسات التعليميّة العموميّة، بصفتها تلك، تظلّ دومًا خاضعةً – من حيث المبدأ – للرقابة العامّة، ويظلّ نظامُها قابلًا للتعديل وفقًا لاتجاهات الحياة الوطنية الأكثر تأثيرًا. أن يسودَ طيلةَ عامين في المدارس الإيطاليّة نظامٌ من الفوضى المقنّعة (نظامُ كوكانيا)[1]، وأن يُستبدَل الاستحقاقُ المدرسيّ بالاستحقاق العسكريّ، فتلك آفةٌ جسيمة وجليّة في الآن نفسه، وسيكون على الاقتصاد الوطني أن يدفع ثمنها باهظًا.

على أنّ هذه الآفة ليست متأصّلة في المبادئ، بل في الأشخاص الذين تعاقبوا على السُّلطة. وقد أراد رجالُ الدّين أن يؤبِّدوا هذا الخلل ليستثمروا آثارَه، ما أمكن، لفائدة مؤسّساتهم الاقتصادية.

(١) بلدة خياليّة رائعة تفيض بالطعام والشراب والمتعة التي ينهل منها المرء كما يشاء. (المترجم)

خلال العامين المنصرمين، انتزعوا امتيازًا يقضي بأن يكون لتلاميذ المؤسّسات الدّينية حريّة اختيار مكان اجتيازهم للامتحانات. ولا يمكن بأيّ حال تبرير مثل هذه الامتيازات بذريعة الحرب. ولا يمكن تبريرُها، من زاوية اقتصادية، بالقول إنّه من الأفضل أن يُمتحن الطالب في غير المؤسّسة التي تابع فيها دراسته. ومع ذلك، فقد منح الوزيران كريدارو وگريبّو هذا الامتياز[1]. فقد سمح هذان الوزيران لرجالِ الدين بأن يُرسلوا تلاميذهم لاجتياز الامتحانات في الأماكن التي يسهل فيها الظفر بالشهادة، حيث يرتبط الممتحِنون بالمترشّحين بوساطة روابط المصالح السياسية أو الفئوية؛ وبالتّالي هي بيئةٌ خصبة للفساد.

تطالب الرسالةُ المفتوحة الوزير روفيني بالإبقاء على هذا الامتياز خلال هذا العام أيضًا؛ وتشتكي من كون الوزير لم يكلّف نفسه عناءَ الردّ على طلبٍ خاصٍّ سابقٍ بهذا الشأن؛ ثمّ تطالب في نهاية المطاف بجعل هذا الامتياز حقًّا ثابتًا لا مجرّدَ إجراءٍ استثنائي للسنة المقبلة. وهكذا، سيكون بوسع أبناء الأغنياء، ممّن لم يبذلوا جهدًا، أن يذهبوا -مثلًا- من تورينو إلى كالابريا، ليجدوا الممتحِن الذي يُجري لهم الاختبارَ وإن كانوا لا يفقهونَ قولاً. أمّا إن ودَّ شابٌّ

---

(١) كريدارو (**Luigi Credaro**)، فيلسوف ومربٍّ إيطالي (١٨٦٠-١٩٣٩)، يُنسب إليه إدخال ثانوية «الليتشيه الحديث» في النظام التعليمي. تولّى وزارة التعليم العمومي بين ١٩١٠ و١٩١٤. گريبّو (**Pasquale Grippo**)، سياسي إيطالي (١٨٤٥-١٩٣٣)، خلفه في المنصب بين ١٩١٤ و١٩١٦. وقد ارتبط اسماهما بإجراءات تفضيلية لصالح المؤسسات التعليمية الدينية، أُقرّت في سياق الحرب العالمية الأولى.

آخر أن يجتاز امتحانَه في مدارس تورينو، فسيكون مطالباً بأن أن يَدرس، ويضحّي، ويبذل قصارى جهده، ليُفاجأ في نهاية المطاف بزميلٍ آخر يسبقه في النجاح، لا لشيءٍ سوى أنّ عائلة هذا الزّميل تملك من النّفوذ ما يكفي لكي تشتريَ له شهادةً، وتضيف إلى كنفِها دكتورًا، وإن كانت، في الواقع، لا تعمل إلّا على رعايةِ حمار.

هل سيواصل الوزير روفيني صمَّ أُذنيه عن الرسالة المفتوحة، كما فعل عن الطلب الخاصّ؟ هل ستتمكّن مصلحة المدرسة من أن تستخرج نفسَها من وحول التفسّخ السياسي؟ لا بدّ للرأي العامّ من أن يجبره على ذلك. فالمجتمعُ كلّه معنيٌّ بأن تكون المدرسة فضاءً لتكوين بشرٍ أكفاء، مهيّئين للقيام بدورٍ فعّال نافعٍ للجميع. ولا مصلحةَ له البتّةَ في أن تتحوّل المدرسةُ إلى موزّعٍ لشهاداتٍ بخسة. ليست الرّسالةُ المفتوحة التي نشرها رجالُ الدّين إذن سوى نسيجٍ من التشويهات لحقيقة المدرسة وواقعِها. ولا مناص للمجتمع الذي ينزفُ دماً في سبيل تغطية نفقات بيروقراطيّةٍ متضخّمةٍ وكسولٍ، من أن يحتفظ لنفسِه بكامل صلاحياتِ المراقبة على منح الشهادات الدّراسية، ذلك أنّ هذه الشهادات، إن مُنِحت بسخاءٍ لمن لا يستحقّها، فإنّها لن تؤدّي سوى إلى زيادة الإحساس بالضيق في الحياة العامة، وإلى خلق طبقات بيروقراطية مترهّلة، تعيش طفيليّاً على حساب إنتاجية العمّال.

المقال منشور في صحيفة Avanti!، السنة الحادية والعشرون، العدد ١٠٢، بتاريخ ١٣ أبريل ١٩١٧.

النساء والفرسان والغراميات
(طبائع/شخصيّاتٌ إيطالية)

خذْ كتابًا من النثر الفنيّ ألّفَه إيطاليٌّ، أو خذْ ألفًا ممّا كتبَه الإيطاليّون في هذا الباب: روايةً، قصةً قصيرة، كوميديا، أو مأساة. تجاهلْ للحظةٍ بُعدَه الفنّيَّ الخالصَ، وحاولْ أن تفهم طبيعة العالم الروحيِّ الذي يشغَلُ وعيَ الكُتّاب، والذي يجتذب أكثرَ ما يجتذب جمهورَ القرّاء؛ ستخلصُ إلى نتيجةٍ واحدة، هي أنّ الإيطاليّين المثقفين، أولئك الذين يكتبون وأولئك الذين يقرؤون، لا ينشغلون إلا بشيءٍ واحد: العلاقة بين الجنسين. إنّ الجنسانية تشكّل مجمل العالم الخياليّ الملحميّ الغنائيّ عند الإيطاليّين. والكاتبُ الأصيل هو مَن يفلح في أن يجد حلاًّ جديدًا لمعضلةٍ نفسيةٍ قديمة، لا تتغيّر مفرداتها أبدًا: الحبُّ، الشغف، الخيانة الزوجية. وتمضي هذه التوليفةُ الأدبيّة متدرّجةً حتّى تسقط في ضربٍ من الإباحيّة الفجّة، أو ترتفع إلى ذروة ما بلغَته أوهنُ رومانسيّات «ضوء القمر»، وأكثرُها تهافتًا وعذوبةً مفتعلة[1].

---

(١) رومانسيّات «ضوء القمر»: ترجمة لصورة بلاغية فرنسية شائعة هي les claires de lune، كانت ترمز في الأدب الرومانسي الفرنسي والإيطاليّ إلى أجواء الحب الحالم

وإليكم أبطال الحكايات: الشابُّ الأرستقراطيّ المنحلّ، المنحرفُ المتأنّقُ، الفتاة الذكية المتصنّعة، الشابة الممزقة بين الأعراف التقليدية والتحرّر، الزوجة التي لا تجد في العلاقة الزوجية ما يشبع رغباتها... وهلمّ جرًّا. فإذا لم يشأ الإيطاليّون أن يُضجِروا قرّاءهم، وجبَ عليهم أن يقدّموا لهم قصصًا عن النّساء، والفرسان، والحبّ (أما السلاح، فهو ممنوع ومحصور في تقارير المراسلين الحربيّين). إنّ الأدب حلقةٌ مغلقة، حلقة مريضة. من يقرأ هذه الكتب قد يُخيّل إليه أنّ إيطاليا حريمٌ ضخم، حافلٌ بقرَدَةِ غوريلا يجتاحها سعارٌ جنسيٌّ، وتتعاطى العاطفةَ لأنّ العاطفة هي أضمنُ السُّبُل إلى بلوغ الغايات. ويخيّل إليه أنّه لا وجود لأي نشاطٍ آخر في الحياة غير العلاقة الغرامية، أو أنّ جميع أشكال النّشاط الأخرى أدنى مرتبةً، ما عدا تلك التي ترعاها «أركاديا»[1] الفنية، وقد فَرضت من الخارج نموذجًا مثاليًّا للكمال. ويخيّل إليه أن الحياة المعاصرة، بكلّ ما فيها من حمّى العمل، وما تحمله من دراما روحيّة ناجمة عن الصراع الطبقيّ وعن صدام المصالح المتعارضة، لا تملك أيّ طاقةٍ قمينةٍ بأن تتحوّلَ إلى مضمونٍ فنيٍّ، باستثناء بعض الحالات النادرة التي استلهمها قراصِنةُ المحافظِ، أو

والعذوبة الحالمة تحت ضوء القمر. يستعمل غرامشي هذا التعبير تهكّميًا، ليشير إلى أدب متهافت يغرق في الحسيّة الرخوة والعاطفية المصطنعة، ويبتعد عن معالجة التوترات الحقيقية في الحياة الاجتماعية والنفسيّة. فـ«رومانسيّات ضوء القمر» عنده ليست سوى تجميل سطحيّ لمعاناة غير مفكّر فيها.

(١) أركاديا: اسم منطقة ريفية في اليونان القديمة، تحوّل في الأدب الأوروبي إلى رمز لعالم مثالي شاعري، يُمثّل بساطة الحياة وانسجامها مع الطبيعة. وغالبًا ما تُستعمل مجازًا للدلالة على تصوّرات جمالية معزولة عن الواقع. (المترجم)

بالأحرى قراصنة الخُدور[1]. يعاني النشاط الأدبيّ من اختلالٍ ناجمٍ عن الحياة السّطحية التي تصبُّ على هذا العالم الأدبيّ كمّيّةً جديدة من البضائع المختومة بالبلاهة، والسّطحيّة، والفراغ البلاغيّ. ولهذا، لا تحظى الآدابُ الإنجليزية والألمانية بأيّ شعبيّة في إيطاليا، بينما الأدبُ الفرنسيّ بضاعةٌ رائجة. ذاك أنّ الأدب الألمانيّ سديميٌّ[2]، كما يُقالُ؛ والأدب الإنجليزيّ يبعث على الضّحك، لأنّ خمسين في المئة من الكتب الإنجليزيّة تخلو تمامًا من قصص الحبّ، وفي الخمسين الباقية لا يحضرُ إلا حضوراً باهتاً، فلا نصادفُه في صورة «السيّد» المتسلّط، «النخّاسِ» المُطاعِ الذي يستقبلُه الإيطاليّونَ برحابة صدر.

في روايةٍ إنجليزيّة معاصرة، نصادفُ عملًا مفعمًا بالطّاقة، نابضًا بالحيويّة الفنّيّة، يسير بخفّة، ويثير من الاهتمام لدى العقول السليمة والهادئة، أكثر ممّا تفعل كلُّ «الروائع» التي خلّفها غويدو دا فيرونا ولوتشيانو تسوكّولي[3]. إنّ العنصر المحرّك في هذه الرواية هو...

---

(١) يشير غرامشي بهذا التعبير إلى تيّارين أدبيّين سلبيين في نظره: «**قراصنة المَحافظ**» هم الكُتّاب الانتهازيون الذين يستثمرون الأدب لخدمة مصالح البرجوازية الصغيرة أو لتحقيق مكاسب مالية مباشرة، دون التزام فكري أو اجتماعي. «**قراصنة الخُدور**» هم أولئك الذين يجعلون من الأدب مجرّد مجالٍ لاستعراض العلاقات الغرامية والحميمية، مكتفين بإثارة فضول القرّاء. وكلا الصنفين، في رأيه، يُفرغ الأدب من طاقته النقدية وقدرته على التعبير عن التناقضات الاجتماعية الحقيقية.

(٢) استخدم غرامشي كلمة السديم هنا لتُعبّر مجازًا عن جملة من الأفكار أو المشاعر الغامضة الملتبسة. (المترجم)

(٣) **غويدو دا فيرونا** (اسمه الحقيقيّ غويدو فيرونا، ١٨٨١-١٩٣٩)، كاتبٌ إيطاليٌّ ثانويّ، كان يُكِنّ إعجابًا بالغًا لدانونتسو، ويُعدّ أكثر الكتّاب الإيطاليّين مبيعًا في عشرينيات القرن الماضي. من أشهر أعماله: **زهرة حديقتي**. **لوتشيانو تسوكّولي** (اسمه الحقيقيّ لوتشيانو فون إنغنهايم، ١٨٦٨-١٩٢٩)، كاتبٌ وصحافيّ وروائيّ إيطاليّ.

نهاية العالم الصغير لبرجوازيّة الدّكاكين. أمام هذه الرّواية سيشعر القارئ الإيطاليّ وكأنّه قد شرب كأسًا من شراب «الأبسينت» المُرّ بعد أن حُشِيَ فمُه وحلقُه ومعدتُه بكلّ ما لذّ وطاب من الحلوى المليئة بالسّكارين، تلك الحلوى التي تعرضُها المحلّات التي صارت رائجة اليوم. وفي الكثافة التي تشكّل قوام الرواية (رواية حكاية السيد بولّي لـ هـ. ج. ويلز)، نعثر على نواةٍ فكريةٍ أكثر جوهريةً:

إنّ مجتمعًا يتزايد تعقيدُه بسرعة، ويأبى، بصورةٍ عامّة، أن يتأمّل في مستقبله أو أن يواجه المشكلات العسيرة لتنظيمه، مثَلُه بالضّبط مثَلُ رجلٍ لا يعتني بنظامه الغذائي، ولا يلتزم بحمية، ويُعرض عن الحمّامات والرياضة، ويطلق العنان لشهواته. هذا الضّربُ من المجتمع إنّما يُراكم كينوناتٍ بلا جدوى، بلا هدف، تمامًا كما يراكم الإنسانُ في دمه عناصرَ زائدة ومُمرضة؛ فيفقد شيئًا فشيئًا قوّته وكفاءته، ويبدأ، في الآن ذاته، بإفراز المعاناة والبؤس. كلّ مرحلةٍ من مراحل تطوّره تترافَق مع أقصى ما يكون من العذابات والاختناقات التي كان من الممكن تفاديها، كما تترافق مع هدرٍ عبثيٍّ للعناصر البشريّة...

ما من شيء يمكن أن يُظهِر بوضوحٍ مدى الحاجة الملحّة إلى نهضةٍ فكريةٍ قويّة، تكون قادرةً على التصدّي للجمود العام الذي يعمّ مجتمعنا، بقدرِ ما تُظهرُ هذه الملاحظة: إنّ ما نراه في صلب هذا المجتمع هو وجودُ كمٍّ هائلٍ من العقول المعطّلة، البائسة، الجاهلة، وجميعها مثيرٌ للشفقة، وقد جرى الاتفاق على أن نسمّي هذه الكتلة -على نحوٍ غير دقيقٍ ومضلّل- باسم: الطبقة الوسطى الدنيا. ويمكن القول إنّ

جزءًا كبيرًا من عناصر هذه الطبقة ينتمي إلى فئة من البشر معطّلةٍ، لا لشيء سوى أنّها غير قابلةٍ للاستخدام، وإن استمرّ وجودها بفضل ما تمتلكه من مدّخراتٍ صغيرة، ناتجة عن أجورٍ سابقة، أو عن بوليصات تأمين، أو عن أيّ مصدرٍ آخر.

يُشكّل صغارُ التّجّار، على سبيل المثال، جماعةً يتألّف معظمها من موظّفين سابقين وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل، إمّا بسبب ضعف تكوينهم، أو لأنّهم يفتقرون إلى الطموح، أو لأنّ تطوّر التقنيات الصناعيّة وتقلّبات سوق العمل قد أطاح بهم. فأنشأوا تجارةً لم يكن لها أيّ داعٍ، فقط بُغية تعويض النّقص في مدخولهم. لكنّ دكّانهم بالكاد يغطي ما بين ستّين إلى سبعين في المئة من مصاريفهم، أمّا الباقي، فيستنزف ما تبقّى لديهم من رأس المال. وهي حيواتٌ فاشلة، إن لم تكن على الطريقة المأساوية للعامل الذي يموت ببطء، مُثخنًا بالجهد والحرمان، فهي على الأقل تموت على مهل، تحت وطأة الخسائر الصّغيرة المتراكمة التي تنتهي حتمًا بصاحبها إلى القبر. وأما أولئك الذين يمتلكون رأس مال أكبر، فلن يصادفوا الموتَ في العوز إلا بعد أن يذوقوا مرارة الإفلاس. وحظُّهم في النجاة بمشروعهم لا يفوق كثيرًا احتمال فوزهم بالجائزة الكبرى في ورقة يانصيب.

وها كلُّ عامٍ يمضي، يحمل في طيّاته نفسَ الموكب البائس من الإفلاسات الصغيرة، ومن السجناء ضحايا الديون، دون إقرارِ أيِّ تدابير رسميّة توقف هذا النزيف. لا تكاد تجد عددًا من أعداد الصّحف التجارية يخلو من أربع أو خمس أعمدة مختصرةٍ تعلن عن

إفلاسات. ومع ذلك، فإنّ كلّ إعلان، أو لنقُل معظمَها، يمثّل في الحقيقة عائلةً بأكملها صارت عالةً على المجتمع، وستعيش، من الآن فصاعداً، على إعاناته. ولا تنفكّ هذه الجماعة العالةُ تتجدّد، إذ تتدفّق إليها جموع الحرفيين والموظفين الفائضين عن الحاجة، يغادرون وظائفهم بعد أن ادّخروا قليلاً، أو يعوِّلون على الدعم المالي من ذويهم، من أرامل قبضنَ قيمةَ التّأمين على أزواجهنّ، ومن أبناء مُدلّلين جاهلين، متغطرسين، منتفخين بما خلّفه لهم آباؤهم من مال- وهم يُسرِعون إلى اقتحام الدكاكين التي هجرها المنهزمون، تلك المحلاّت الهشّة الرديئة التجهيز التي تنتشر في كل مكان[1]...

وليس ما سبقَ مجرّد عَرَضٍ من أعراض الاتجاه الأدبيِّ السائد. إنّ من لا يهتمّ سوى بالفراغ، سيُصاب به لا محالة؛ ومن يتّخذ التفاهة العاطفيّة نموذجًا للكمال الإنساني، سيغدو هو نفسه تافهًا. تلك هي أعراض الانحلال التي تطبع الحياة الإيطاليّة، وتجعل من المستحيل التمييز بدقّة بين القيم الإنسانية والقيم الاجتماعية-السياسية. ولهذا السّبب ترى أنين بضعة الآلاف من فُتَات المجتمع، الذين يُدعَون بالتجّار، يكتسي أهميّةً أكثر من معاناةِ ملايينِ المواطنينَ الإيطاليّين البسطاء، أولئك الذين يشكّلون الجزء الديناميكي والخلاّق لطاقات بلدنا البائس.

١٠ تمّوز/ يوليو ١٩١٧

---

(١) H.G. Wells, The History of Mr. Polly، نُشرت في نيويورك، دار Duffield and Company، سنة ١٩١٠. وقد قرأ غرامشي الرواية من خلال ترجمة جيامبيترو تشيرتي، التي نُشرت في ميلانو، عن دار تريفي، سنة ١٩١٥.

مهمّة أخلاقية
(الأسرة)

مرّةً أخرى يُصوَّرُ الاشتراكيّون في صورةِ أعداءِ الأسرة. وهذا من أشدّ الأحكام المسبقة المعادية للاشتراكيّة تجذّراً، وأكثرها شيوعًا، لاسيما في الأوساط الشعبيّة التي لا علمَ لها بمبادئنا، ولا درايةَ لها بمُثُلنا العليا؛ ذلك أنّ الإيمان الذي وُضِع موضع التنفيذ لعتقِ الإنسان من عبوديّته الاقتصاديّة - أي الإيمان الذي يدينُ تلك العبوديّة - لم يستدعِ أيَّ تعاطفٍ يُتيح فهمَه بوصفه حركةً اجتماعيّة، حتّى دون المرور بدراسةٍ نظريّة. فغيابُ كلّ ثقافةٍ لدى هذه الأوساط يجعلها عاجزةً عن أن تفهم، ولو فهمًا موضوعيًّا، ما الذي يرومُ الاشتراكيّون تحقيقَه، ولا بأيّ صورةٍ يسعونَ إلى تطبيقِ ما يعزمون على تحقيقه.

إنّ الأسرة، في المقام الأول، كيانٌ أخلاقيّ. إنّها النّواة الاجتماعيّة الأولى فوقَ الفرد، وبالتّالي هي تفرض عليه جملةً من الواجبات والمسؤوليّات. وقد تغيّرت بنيةُ الأسرة على امتداد التّاريخ. ففي العصور القديمة، كانت الأسرةُ تضمّ، إلى جانب

الوالدَين وأطفالهما، جميع الأقرباء، والعبيد، والموالي، والأصدقاء. فبما أنّ الأسرة القديمة كانت تؤدّي أيضًا وظيفة الحماية والدفاع الاجتماعي، كان النّاس يحتشدون حول رجلٍ قويّ وثريّ؛ فلا يضمُّ هذا الرّجل إليه زوجته وأطفاله فحسب، بل كلّ أولئك العاجزين عن حماية مصالحهم الحقوقيّة، أو الأخلاقيّة، أو الاقتصاديّة، بأنفسهم؛ أولئك الذين يُرغَمون على إعلان ولائهم لهذا الرّجل القويّ، ويُسدّدون له نظير ما ينالونه منه من أمنٍ وحريّة شخصيّة، خدماتٍ متفاوتة الأهميّة.

وبتقدّم فكرة الدّولة ومؤسّستها في التّاريخ، بدأ الأفراد يكتسبون، خارج الأسرة، إمكانيّة التمتّع بالأمن والحريّة. ومن ثمّ، تقلّصت الأسرة إلى نواتها الطبيعيّة، إلى الآباء والأبناء. ومع ذلك، لم تفقد صفةَ الجهاز الأخلاقيّ، ولا كفّت عن أداء وظيفة الحماية والدّفاع البيولوجي والاجتماعي. ومن هذا المنظور المزدوج تحديدًا، تُقاس نواقص الأسرة في صيغتها الراهنة.

أمّا عن موقفنا، نحن معشر الاشتراكيين - وأقصد هنا على الأقلّ أولئك من بيننا، وهم الأكثريّة، الذين لا يعبدون الدّولة، ولا يعتقدون مطلقًا أنّه ينبغي في ظلّ نظام اشتراكي أن تُوكَل تربية الأطفال إلى مؤسّساتٍ حكوميّة، غير شخصيّة، تُدار على يد موظّفين، وفق آلية بيروقراطية - قلتُ إنّنا، نحن معشر الاشتراكين، نرى بوجوب استعادة الأسرة مهمّتَها الوحيدة، تلك التي تخصّها دون غيرها؛ ألا وهي المهمة الأخلاقية، مهمة الإعداد الإنسانيّ،

الإعداد للحياة المدنية. إنّ الأسرة اليوم عاجزة عن أداء هذه المهمة. فدور الآباء الرئيس لم يعد هو التربية، لم يعد هو نقل كنزِ الخبرات الإنسانية التي ورثناها من الماضي والتي يواصل الحاضرُ مراكمتَها، بل غدا دورهم يقتصر على حماية النموّ الفسيولوجي للأطفال، وتوفير أسباب العيش لهم، وضمان هذه الأسباب في المستقبل كذلك. ولقد نشأت الملكية الخاصة تحديدًا لأجل هذا الغرض. حين يصير الفرد مالكًا، يكون بذلك قد حلّ معضلته الكبرى: معضلة أمان أطفاله، كما أمان زوجته. ولكن الحلّ الذي قدّمته الملكية الخاصة لهذه المعضلة هو حلٌّ لا إنسانيّ؛ إذ تصبح حماية الأطفال امتيازًا لبعضٍ الأفراد دون غيرهم. أمّا نحن الاشتراكيين، فلا نسعى إلى هذه الغاية. بل نريد أن نضمن لكلِّ طفلٍ، بغض النّظر عن من يكون أبواه، الحمايةَ في مسار تطوّره الجسديّ والمعنويّ، أن يكون كلّ الأطفال سواسية في مواجهة الأخطار، وتهديدات البيئة، وأن يحظون جميعاً، بلا استثناء، بالوسائل نفسها الضرورية لتنمية قدراتهم، والقمينة بتحرير طاقات الذكاء الكامنة فيهم جميعًا، وأن نقدّم للبشرية ثمارَ المعرفة والعمل الجماعيّ، ونتائج البحث العلمي، وأسباب تفتّح الخيال الذي هو منشأُ الجمالِ في الشعر، وفي النحت، وفي سائر الفنون. ولا يمكن للأسرة أن تضطلع بذلك كلّه إلّا إذا أُلغيت الملكية الخاصّة وتحولت إلى ملكية جماعية. وحده إلغاء الملكية الخاصة هو ما يسمح للأسرة بأن تكون ما ينبغي لها أن تكونه: كيانًا للحياة الأخلاقية. ففي نظامٍ اشتراكيّ

جماعيّ، ستكون الحماية والحريّة حقًّا مشاعًا للجميع دون استثناء، وستُوفَّر للجميع الوسائل الضرورية لحماية الأطفال. حينها، لن يبقى الآباء مستعبَدين لهاجس تأمين الخبز لأبنائهم، بل سيكون في مقدورهم أن يؤدّوا بهدوءٍ دورهُم الأخلاقي في التربية، بوصفهم حَمَلةً لمشعل الحضارة الصغير، ينقلونه من جيلٍ إلى جيل، من الماضي إلى المستقبل.

كيف يستقيم القول، والحال هذه، إنّ الاشتراكيّين والبروليتاريا أعداءُ الأسرة؟

كيف نفسّر ذلك التفاني العنيد الذي يبديه العاملُ في نضاله من أجل خلاص طبقته، إن لم يكن مدفوعًا بالحبّ، وبقلقِه العميق على مستقبل أطفاله؟ إنّ البرجوازي يتعب، ويُنهك نفسه مرارًا لكي يُراكم الثروة لنفسه، ليقيم ملكيةً يورّثها لأطفاله. غير أنّ تعبه وإرهاقه العضليّ لا ينيران أليافَه بشعلةٍ إنسانيةٍ شاملة، بل يعتِمُهما امتيازٌ يرغب في الإبقاء عليه، وسعيٌ إلى إقصاءِ أكبر عددٍ ممكن من النّاس. أمّا العاملُ، فيكدح ويتعب لأنّه يريد أن يترك لذريّته شروطًا أخرى للعيش، وليهيّئ لهم مستقبلًا يسوده السّلمُ والعدالة، مستقبلًا يجدون فيه، دون استثناء، ودون أن يُقصى أحدٌ منهم، ما يكفل لهم أسباب القوت، وما يضمن لهم شروط التقدّم العقليّ والرّوحيّ، ليتمكّنوا بدورهم من توريث هذه الشروط، وقد ازدهرت وتنمّت، لأبنائهم من بعدهم.

فمن تراه يفوق هذا العاملَ حبّاً للأسرة؟ من أشدّ حرصًا على

قوامِها العقليِّ والرّوحيّ؟ ورغم ذلك، سيظلّ الأغبياءُ والجهلة، ولزمنٍ طويلٍ، يعدّون الاشتراكيّين أمثالَنا، ألدَّ أعداء الأسرة، وأشدَّ المتربّصين بها هدمًا وتخريبًا.

٩ فبراير/ شباط ١٩١٨

المعرفة والنميمة
(الحداثة)

حداثة: لم يَعُدِ القتلُ يثير مشاعر أحد، ولم يَعُد موتُ إنسان يُحرّك شيئًا في أحد. القاتل ما عاد يُرى إلّا سببًا للفضول. المعرفةُ قتلت الإحساسَ، والعقلُ خنقَ القلب. لقد تحوّلت المعرفةُ والعقلُ إلى نميمة، إلى تلك الحاجة المَرَضيّة لمعرفة كلّ شيء عن أبشع الوقائع. الصحفُ تَقتات من الفضول، وتُراهن عليه: تلك هي من أكثر صُوَرِ المضاربة حداثةً.

حداثة: القسُّ يُضارب في تجارة الخشب، يُصبح مصرفيًّا، وسيطًا، مندوبًا تجاريًّا، مسافرًا لبيع السّلع؛ يتقمّص كلّ الصّورِ إلاّ صورةَ قسّ.

حداثة: موظّفُ السكك الحديد يُضارب في عربات القطار، يستغلّ الوثائق الرسميّة لقضاء مصالحه الخاصة؛ يتاجر في الخشب، ويُقيم علاقات تجاريّة مع القسّ التّاجر، الذي يعلم أنّ الرّبح الذي يجنيه مردُّه إلى فساد الموظّف.

حداثة: كونتيسةٌ تؤجّر غرفًا مفروشة في ملكيّتها الإقطاعيّة. موظّفٌ يتقاضى مئتي ليرة شهريًّا، ويدفع ستمائةً مقابل قبوٍ صغيرٍ في تلك الملكيّة الإقطاعيّة. القَسّ يزور هذا القبو، وهو يعلم تمامًا أنّه مستأجرٌ من طرف موظّف لا يتجاوز راتبُه الشهريّ مئتي ليرة. لكن في عالم التجارة، كلّ شيءٍ يبدو طبيعيًّا وكلّ شيءٍ ممكن، حتّى وإن كان التجّارُ قساوسةً، حتّى وإن كانوا بمثابة أزهار «الأدلفايس» الأخلاقيّة[1]، زهور الطهارة الروحيّة. فالأعمالُ تبقى أعمالًا، وتُبرّر حتّى أكثر العلاقات انحرافاً.

حداثة: موظّف السكّة الحديد يُريد أن يختتم مساره المهنيّ بضمانِ معاشٍ تقاعديّ يؤمّن له شيخوخةً مريحة. فالجروُ منذور لأن يتحوّل ذئبًا. ومع ذلك، لا يتحفّظ القسّ من الجرو. لِمَ لا يتحفّظ منه؟ إنّه يعلم، وهو في كامل وعيه، أنّ موظّفًا يتقاضى مئتي ليرة شهريًّا، ويتلاعب بعرباتٍ خُصّصت لإدارته، ويدفع ستمئة ليرة شهريًّا على شقّةٍ في تورينو، بينما هو يسكن في ألساندريا، لا يمكن أن يكون قدّيسًا. فلماذا لا يتحفّظ منه إذن؟ تلك من أسرار الكهنوت التجاريّة.

---

(١) **أزهار الأدلفايس الأخلاقيّة**: يستعمل غرامشي هذه العبارة ساخراً من صورة التجّار الذين يتظاهرون بالفضيلة والطهر، فيصفهم مجازًا بـ«أزهار الأدلفايس»، وهي زهرة جبلية بيضاء نادرة ترمز في الثقافة الأوروبية إلى النقاء والشجاعة. يشير التعبير هنا إلى التناقض بين مظهرهم الأخلاقي المتأنق وواقعهم الفاسد، في نقدٍ لزيف القيم الأخلاقية في مجتمع بورجوازي يُضفي على الانحراف الاقتصادي قناع الطهر.

حداثة: الموظّفُ يقتل القسّ، طمعًا في أن يحصل على أربعمئة ألف ليرة[1] من تركتِه. وإذا كانت باريس فيما مضى تستحقّ قُدّاسًا،[2] فمن الجليّ اليوم أنّ أربعمئة ألف ليرة تستحقّ إزهاقَ روح شريك. أمّا الجروُ، فلا يلبث أن يغدو ذئبًا مُكرّساً، على الطّراز الحديث تمامًا. وهنا تنتهي الحداثة.

كونتيسةٌ تؤجّر غرفًا مفروشة؛ قسٌّ تاجر، مصرفيّ، مندوب؛ موظّف يتقاضى مئتي ليرة شهريًّا، وينفق ستمائة على كوخٍ في المدينة الكبرى: تلك هي تجليّاتُ الجريمة الوحشية. وحسبنا ذلك. أمّا طريقة القتل، فعلى الطراز القديم: بالفأس، لا باستخدام الكلوروفورم أو التنويم المغناطيسي. والذئب وهو الذّئبُ، ما يزالُ كما كانَ، ذئبَ الأزمنة الخوالي، وإن انبثق وسط هذا العصر المظفّر المدعو «حداثة»؛ إنّه يمزّق، ينهش، يغمس يديه في الدم، وتلكم هي الحداثة المظفّرةُ التي تُشبع لدى النّاس غريزةَ التوحّش، غريزةَ حياةِ الكهوف.

١٨ مارس/ آذار ١٩١٨

---

(١) العملة الإيطاليّة قبل اعتماد اليورو.

(٢) العبارة «وإذا كانت باريس فيما مضى تستحقّ قدّاسًا» تُحيل على مقولة منسوبة إلى الملك الفرنسي هنري الرابع (١٥٥٣-١٦١٠)، الذي اعتنق الكاثوليكية سنة ١٥٩٣ ليظفر بعرش فرنسا بعد حروب دينية طاحنة. وقد برّر هذا التحوّل بعبارةٍ شهيرة «Paris vaut bien une messe» («باريس تستحقّ بالفعل قدّاسًا»)، في إشارةٍ إلى أن اعتناق مذهب خصومه كان ثمنًا مقبولًا لحكم العاصمة. تُستعاد هذه المقولة في نصّ غرامشي بتقنية المفارقة الساخرة، إذ تُقابَل «التضحيةُ الرمزية» في الماضي (التحوّل الديني) بـ«التضحية الدموية» في الحاضر (إزهاق الأرواح من أجل المال)، ما يُظهر انحدار المعايير الأخلاقية وتحوّل الإنسان إلى أداة في اقتصاد الجريمة.

الحريّة والقانون

إنّ قسيمة الخبز لا تكفي -على ما تقول صحيفة كوريري ديلا سيرا-، فلا بدّ أيضاً من إصدار قسيمة للحريّة. رائع، أليس كذلك؟ إنّه لأمرٌ رائعٌ إلى حدّ أنّنا نُعلن فورًا انضمامَنا غير المشروط إلى هذا المقترح، وسنحاول أن نُجسِّده الآن في صيغةٍ ملموسة. يمكن أن تتجلّى هذه القسيمةُ في قانونٍ ينصّ على ما يلي:

١. لا يجوز أن يُعتقَل أيُّ مواطنٍ إيطاليٍّ دون أن يَعرف، خلال عشرة أيّام، الأسبابَ التي أدّت إلى اعتقاله، بل يجب أن يمثُل أمام قاضيه الطبيعيّ ويستعيد حرّيّته، ولو على سبيلٍ مؤقّت.

٢. لا يُلتجأُ إلى الحَبس الاحتياطيّ إلاّ في حال المخالفات الخطيرة جدًّا -ولا يطبَّقُ إلاّ حين تكون دلائلُ الإدانة في حقّ الموقوف كافيةً إلى درجةٍ تجعل إدانته أمراً راجحًا جداً - ولا يجوز

بأيّ حالٍ أن يُمدَّد هذا الحبسُ إلى أجلٍ مفتوحٍ، أو يتجاوز الحدّ الأدنى للعقوبة المفترضة.

٣. أمّا بالنّسبة إلى الموظّفين، والقضاة، وحُرّاس السّجون، الذين يتسبّبون في أن يُسلب مواطنٌ حريّتَه تعسّفًا؛ فإنّ على كلٍّ منهم أن يدفع لهذا البائس تعويضًا نقديًّا شخصيًّا لا يقلّ عن عشرة آلاف ليرة، يُحوّل إلى عقوبةِ سجن في حالِ تعسّرَ عليه الدّفع، مع فتح سجلٍّ عدليّ في حقّه، ومنعِه من شغل أيّ وظيفة عموميّة، وتجريده من حقوقه المدنيّة لمدّة خمس سنوات.

إنّ للقسيمة حدوداً، لكن ينبغي لها أيضًا أن تشتمل على ضمانةٍ أكيدةٍ وملموسة لما يتعلّق بالحدّ الأدنى من الحريّة الممنوحة. وينبغي ألا تكون القسيمة صالحةً لعموم المواطنين فحسب، بل أن تشمل أيضًا المواطنين القيّمين عليهم. فهي تُفرَض على هؤلاء كما تُفرَض على أولئك، بل لعلّها تُفرَض على أولئك أكثر. فلا ينبغي أن يكون المصير هنا كمصير قسائم السُّكر. إنّ الحريّة، تمامًا كالخبز، ينبغي أن تكون مضمونةً: قسيمةٌ للحريّة، كتلك التي أشرنا إليها، موجودةٌ منذ ما يقارب ثلاثة قرون في إنجلترا، إحدى حلفائنا، تلك التي تخوض أيضًا حربًا من أجل الحريّة والعدالة. فلتأتِ بها إذن الحكومة الإيطاليّة، ولْتفعلْ ذلك بموجبِ مرسومٍ تنفيذيٍّ. أمّا إيطاليا التي نقرؤها على صفحات كورييري ديلا سيرا، إيطاليا المعجبة بما تملكه إنجلترا من مليارات، فإنّها لا تفهم من القسيمة إلّا ما هو... على الطريقة الإيطاليّة: قسيمةٌ للسُّكر... ولا سُكّر؛ قسيمةٌ للخبز، ولا

خبز؛ قسيمة للحريّة، لكن مع نموذج بافا بيكاريس[1]، ومع الأحكام العرفيّة.

١٠ سبتمبر/ أيلول ١٩١٧

(١) فيورنزو بافا بيكاريس (١٨٣١-١٩٢٤): جنرال إيطالي اشتهر بقمعه الدمويّ لانتفاضة ميلانو سنة ١٨٩٨. وقد خُلّدت ذكراه الأليمة في أغنية شعبية بعنوان Il feroce monarchico Bava (بافا الملكيّ المتوحّش).

واجباتُ قاضٍ
(دفاعاً عن بلاطس البنطي)

لا يتعلّق الأمر هنا بمديحٍ متناقضٍ. إنّما يتعلّق أخيرًا بالاعتراف، باعترافٍ عادل، باستحقاقٍ حقيقيّ. بل لقد آن أوان الاعتراف باستحقاقٍ ما كان ينبغي قطّ أن يُنكر.

إنّ بيلاطس البنطي هو أكبر ضحايا المسيحيّة والحقد الدينيّ. لقد تعرّض اسمه للتشهير حتّى غدا مرادفًا للجبن، ولانعدام الشخصيّة. غير أنّ أحدًا لم يستأنف يومًا هذا الحكم. لقد شوّشت المسيحيّةُ على العقول، وأعاقت السعيَّ الحثيث إلى الحقيقة. بل إنّ أولئك الذين انتزعوا أنفسهم من مستنقع التديّن، ما يزالون يعرّضون ببيلاطس، رغم أنّهم لا يرون في موت يسوع المسيح غير واقعةٍ صحفيّة، جرى تحويلُها إلى أسطورة، ونُفخت إلى أقصى الحدود بفعل حماسة المتعصّبين، والحاجة إلى دعايةٍ آنيّةٍ لدى أوائل المسيحيين.

كان بيلاطس البنطيّ قاضيًا بطوليًّا. إذ لمّا كان يعتقد في براءة المسيح فقد أوكلَ تنفيذ الحكم إلى الفِرَق الرومانية. قد يُظنّ أنّه تحايَل، لكنّ الأمر لم يكن كذلك. لم يرتكب بيلاطس البنطي سوى

خطأٍ واحد: أنّه أدّى واجبَه بضمير، واحترمَ صلاحياته احترامًا بطوليًّا. لم يكن ينوي التشدّد، ولا أراد أن يُخاتِل، ولا حتى أن ينصاعَ لإملاء ضميره الشخصيّ، كفردٍ، كمواطن. الوظيفةُ القانونيّة التي كان يتقلّدها كمّمت صوتَ الضّمير، ضميرِ الفرد، ضميرِ المواطن الخاصّ.

كان بيلاطس البنطيّ هو حاكم يهودا في عهد الإمبراطور تيباريوس. وكانت صلاحيّاته محدّدةً بدقّةٍ صارمة من قِبَل القانون الرومانيّ، وكان القانون الرومانيّ قانونًا ليبراليًّا. لم يكن ذلك القانون يُجيز معاقبة إلا منتهكِيه: أولئك الذين امتنعوا عن أداء الضّرائب، أو اعتدَوا على أملاك القيصر أو ممثّلِه. أمّا في ما عدا ذلك، فقد كان اليهود مستقلّين، تخضعُ سلوكياتهم لقوانينهم وعاداتهم المحليّة؛ وكانت السُّلطات الرّومانية، التي تحتكر السُّلطة التنفيذيّة، تكتفي بتطبيق العقوبات الصّادرة بموجب تلك القوانين وتلك الأعراف. وهكذا، فإنّ بيلاطس البنطيّ، بالرغم من إلحاح الفريسيّين والعشّارين (وكان العشّارون يومها مموِّني الدّولة)، رفضَ محاكمة يسوع المسيح، وأعاده إلى هيرودس؛ ذاك أنّ التُّهم الموجّهة إلى يسوع لم تكن مشمولة بالقانون الرومانيّ، ولم تكن تندرج في باب الجرائم السياسيّة. ولهذا، فإنّ بيلاطس ظلّ دائمًا مصرّاً في على رفض كلّ محاولات التأويل التي حاول العشّارون وكهنة الهيكل أن يفرضوها على هذا القانون. لأنَّ المفسّر الوحيدَ للقانون الرّومانيّ، كان هو؛ لا أولئك الذين يصيحون كالمجانين في الشارع.

حُكِم على يسوع، لكنّ الحكم لم يُصدَر كما لو أنّه يستند إلى قانون رومانيّ؛ لقد حُكِم عليه، لكن بيلاطس البنطيّ رفض أن يخلع على ذلك الحكم طابعًا إمبراطوريًّا، واكتفى بأن يمتثل للقانون، الذي كان يُلزمه بتنفيذ العقوبات المستندة إلى قوانينَ محليّة خالصة. لقد نُفِّذ الحكمُ بِاسمِ احترام الاستقلاليّات المحليّة، الاحترام الذي كانت تفرضه القوانين الرّومانية على القضاة الرّومان.

لقد شوّه المسيحيّون سيرةَ بيلاطس البنطيّ. والحالُ أنّ الضّمير الحديث ينبغي أن يُشيد به. فمنذ سقوط الإمبراطورية الرّومانية، ضيّعَ النّاس فكرةَ العدل، وكان لا بدّ من استعادتها في العصر الحديث. إنّ استقلالَ السُّلطة القضائيّة مكسبٌ من أهمّ المكاسب التي حقّقها الإنسان الحديث؛ في فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، والولايات المتّحدة، نعم؛ لكن ليس في إيطاليا. إنّ المنظومة القانونيّة في مملكة إيطاليا تُخضِع السُّلطة القضائية للسلطة التنفيذيّة ضمن حدودَ معيّنةٍ. وحدَه القاضي مخوّلٌ بتفسير القانون؛ وحده يملك الحقّ في أن يحكم، فيقرّر ما إذا كان المواطنُ قد خرق القانون، وما إذا كان ينبغي عقابه، وبأيّ تهمة يُعتقَل. ولا ينبغي في إيطاليا، كما كان الأمر عند بيلاطس، أن يُفرَض على القاضي أيَّ مسارٍ من قِبل الفريسيين أو العشّارين أو أولئك الصّائحين في الشارع. غير أنّهم لا يكفّون عن المحاولة، أولئك الذين يستدعُون التقاليدَ الرومانيّة، ويعلنون أنفسهم ورثتَها والمبشِّرين بها، على الرّغم من أنّهم، هم أيضًا، من يُقرّون بأنّ الحضارة الرّومانية قد فرضت نفسَها على

العالم أجمع، بفضل سماحةِ قانونها في المقام الأوّل، وبفضل دقّة التزام القضاة الرّومان بروح هذا القانون.

أما الأحفادُ، أولئك الذين يزعمون وراثة التقاليد الرومانية، فقد بلغ بهم الأمرُ أن يبتزّوا القضاةَ بِاسم الجوع. يطالبونهم بانتهاك القانون، بانتهاك ما بقي من ضماناتٍ للحريّة التي توفّرها القوانين الإيطاليّة للمواطنين، ويعرضون عليهم ثمنًا لهذه المخالفة: الدّعم والمساندة في مطالب زيادة الأجور.

كان من الضروريّ إذن ردّ الاعتبار لبيلاطس البنطي. فكلّما ظهر بيلاطس في ضوئِه الحقيقيّ، بصفتِه قاضيًا خاضعًا للقانون، مدافعًا عن استقلاله، باعتباره المفسّرَ الوحيدَ المخوّل له، والمسؤول عن، تأويل قانون الدّولة، ازداد مشهدُ الفريسيّين والجباة قبحًا، هؤلاء الذين كانوا (في روما) يُعرفون بأنّهم المموّلون العسكريّون للدّولة، وهم الذين خرجوا يصرخون بهياجٍ في الشّارع: «اُصلُبهُ، اُصلُبهُ!»

٢٩ سبتمبر/ أيلول ١٩١٧

يسوع وملايين البشر
(أفول أسطورة)

يُولَدُ إنسانٌ في ركنٍ من أركان سطح الأرض. تنتهي حياتُه فجأةً على مقصلة العقاب الأعظم. غير أنّ حياةَ أعماله، كلماته، تستمرّ، تتضخّم، تصبح ملايين وملايين الحيوات، تَطبعُ ختمَها على قرونٍ من التّاريخ. لقد غدا الإنسانُ أسطورةً، وصار جزءًا من الوعي الكونيّ، نال الخلودَ، ذاك الخلود الوحيد الذي يعترف به العَلمانيّون: خلودُ كلمةٍ سامقة، مثالٍ أسمى للحياة الأخلاقيّة في العالم، في ضمائر البشر الذين وُلدوا من بعده، والذين سيولدون.

بزغت حضارةٌ جديدة تحملُ اسمَ هذا الرّجل. كانت الحضارة الجديدة ضرورةً تاريخيّة، كامنةً بالقوّة في صُلب الحضارة السابقة، فجاء هذا الرّجل فكشف عنها، وعبّر عنها بكلماتٍ خالدة، وأتاح انتشارها. وقد أطلق في العالم اليونانيّ الرومانيّ فكرةً جبّارة: أنّ اختلافَ الدّم، واختلاف العِرق، لا ينبغي أن يُشكّل مصدرًا للّامساواة بين البشر؛ فالبشر متساوون، لأنهم أبناءُ أبٍ واحد، لأنّهم موسومون بنفس الخطيئة، لأنهم محكومون بضرورة التطهير

نفسها، سعياً إلى أن يبلغوا حياةً هي الحياة الحقُّ، الحياة التي ليست من هذا العالم.

هكذا غمر شعور المساواة ملايين البشر الذين كانوا، من قبلُ، يظنّون أنفسهم أدنى شأنًا. اهتزّ نظامُ العبودية وملكية الأجساد البشريّة. وبدأ هؤلاء الملايين يشعرون بأنهم ليسوا عدمًا، وجعلوا يتأمّلون طبيعتَهم، ووعيهم الشّخصيَّ. إنّ صيغة فدائهم كانت تأتيهم من رجلٍ مات في زمانٍ ما، لأنّه أكّدَ هذا المبدأ. وقد تطابقت ضمائرُ البشر ببساطةٍ وسذاجةٍ مع ذلك الرّجل، ومع ذلك المكان. فجعلوا من واقعٍ مثاليّ مادّةً ملموسة. ومن أجل هذا الرّجل، ومن أجل هذا المكان، انقضّ بعضهم على بعض، وتحمّلوا التضحيات، وأشعلوا المحارق، وابتدعوا صنوفَ العذاب. غير أنّ الأسطورة، أي تجسّدُ الفكرة، قد تطهّرت تدريجيًا من شوائبها القاتلة والعارضة. وقد ضحّى رجالٌ آخرون بأنفسهم، قائلين إنّ ضمير/ وعي الإنسانيّة هو مَن تحرّر؛ إذ أدرك ذاتَه، ووعى ما فيه من قوّةٍ كامنة، فاقتلع الجذور وحطّم السلاسل. إنّ الرّجل الذي أُلِه، والذي آل به المطاف إلى أن يتّخذ عظمةً زائفة ومصطنعة، عاد مجدّداً رجلاً، رجلاً ككل النّاس: قال الحقيقة، وسعى إلى نشرها، واستُشهِد في سبيلها. لقد جُعل أعظمَ ممّا هو عليه، لكنْ في شيءٍ من الحقّ، في عظمةٍ حقيقيّة لا عابرة، تُثبتها الفاعليةُ الممتدّة عبر القرون، وعبر تاريخِ كلمةٍ سامقة، وتضحيةٍ ساميةٍ من أجل الواجب. لقد غدا شاهدُ الألوهيّة شاهدًا على إنسانيّةٍ أكملَ، غدا شاهدًا على

إنسانيّةٍ أفضلَ، إن لم تكن هي الأفضلُ والأكملُ. وغدا أحدَ أهمّ اللّحظات في الصراع الأبديّ والصبور الذي يخوضه البشر ضدّ طبيعتهم، وضدّ جزءٍ منهم، كي يصيروا أكثر تحرّرًا، وأكثر قدرةً على التحكّم في إرادتهم وفي الوسائل التي تمكّنهم من تنفيذها. وهكذا صار الهدف الذي يضعه البشر لنشاطهم أوضح فأوضح، [illegible] دنيويّة وكذلك أضحى "الخلود" الذي يسعى إليه الإنسانُ خلودًا [illegible] بالقدر الذي يدرك فيه البشر أنهم مدعوّون [illegible] في الثمار، وفي ذاكرة أبنائهم [illegible] من بعدهم؛ وذلك بالعمل في سبيلهم، وتحسين الحاضر لأجلهم، كي يكون المستقبلُ أفضلَ؛ وهكذا تقوّضت الأسطورةُ. تبدّدت الرموز المادية لواقعة غابرة في الماضي؛ فصار القبرُ والمدينة مجرّد قبرٍ ومدينة. وأدرك النّاس أنّ ذلك النّورَ الذي حسِبوا أنّهم رأوه يشعّ من الآخرة، إنّما هو في الحقيقة يصدر عن ضمائرهم، عن إرادتهم، عن أعمالهم نفسها. وهكذا صارَ «تحرير القدس» واقعةً أخرى من بين وقائع الحروب الأوروبيّة، وكفّت الأجراسُ عن ترديد ترتيلةِ المجد، والجماهيرُ عن التدفّق، مبتهجين، إلى السّاحات. ليست القدسُ هي ما حُرِّر، بل إنّ البشر هم من تحرّروا من القدس. لأنّ تحريرًا متكلّسًا، ماديًّا، متحوّلًا إلى عقيدةٍ جامدة، لا يلبث أن يصير استعبادًا؛ والبشر إذ صاروا غيرَ مبالين بقدوم المخلّص، فقد شهدوا على تحرّرهم مِن استعباد الأسطورة المسيحيّة، ومنَ الماديّة المسيحيّة.

٢٢ ديسمبر/ كانون الأوّل ١٩١٧

التّاريخ دائماً معاصرٌ
(اللحية والشارة)

كتب الفيلسوف كروتشه بعض المونوجرافيات ليُبيّن أنّ «التّاريخ» دائمًا «معاصر»[1]. ولكي يصير حدثٌ من الماضي تاريخًا، ولا يظلّ مجرّد علامة خطيّة، أو وثيقة مادية، أو أداة تَذكُّر، فلا بدّ من أن يُعاد بناؤه؛ وهذه العمليّة من إعادة البناء هي التي تُمكّنه من أن يغدو معاصرًا، بدءًا من اللحظة التي تتدخّل فيها عمليّة التقييم، ويُعاد ترتيب عناصره ترتيباً يتوقّف بالضّرورة على وعي ذاك الذي يصنع التّاريخ الماضي، ذاك الذي يعيد بناء الوقائع الماضية.

كان الفيلسوف كروتشه محقًّا، بلا شك. واليوم يبدو رأيُه مقنعاً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، بالنّسبة إلينا نحن الذين بتنا تعيش تجارب

---

(١) كان غرامشي شديد التأثر بالنزعة التّاريخية لدى بنديتو كروتشه، رغم أنّه لم يكن يشاركه مثاليّتَه. ويمكن أن نقرأ في «الدفاتر» ما يلي: «في فبراير ١٩١٧، في ملاحظة مقتضبة (...) كتبتُ أنّه كما كانت الهيغليّة مقدّمة لفلسفة الممارسة في القرن التاسع عشر، فكذلك يمكن أن تكون فلسفة كروتشه، في زماننا، لجيلنا، مقدّمة لاستئناف فلسفة الممارسة (...) كنتُ ميّالًا إلى كروتشه». الدفتر ١٠، القسم ٢٣، بين ١٩٣٢-١٩٣٥.

كبيرة، وعميقة وواسعة على نحو غير مسبوق. إنّنا نفهم اليوم مغامرات الماضي ونفسيّات رجاله فهمًا أفضل، أولئك الذين تعلّمنا في المدرسة أن ننظر إليهم كطغاةٍ، أن نتصوّرهم ملوّثينَ بالدّماء، بوجوه مشوّهة، تحفّ بهم الزبانية، يقضون وقتهم في إرسال الرّجال إلى السّجون أو إلى المقصلة.

لقد انتزعَنا وعيُنا الراهنُ من سحر الأسطورة، وجعلنا نعيد التفكير في تلك الوقائع وفي أولئك الأشخاص من زاوية أقرب إلى ما عاشوه هم بالفعل. كان الطغاةُ يقترفون خطأً لا يقلّ شيوعًا عمّا نشهده اليوم: فقد كانوا، وما زالوا، ماديّين بالمعنى الذي يجعلهم يقيسون الواقع بأدواتٍ خارجيّةٍ صِرف، فلا يصدرون أحكامَهم إلاّ انطلاقًا من مظاهرِ الواقع الحسّيةِ. في ذلك الزمن، كانت الرّقابة تسمح بالكلام عن «حريّةٍ صينية»، لكن لا عن «الحريّة الإيطاليّة»: فما دامت الحريّة تقع على بعد آلاف الكيلومترات، فلا موجب للقلق. وكان تلميذٌ في المدارس اليسوعية يُعاقَب بشدّة إن تجرّأ على الكلام عن «جمهورية»، عن «مثُل شعبية»، عن «حقوق العامّةِ المهدورة»، إلخ. ومع ذلك، واردٌ أن نلفيَ التلميذ نفسه، وقد انضمّ إلى رفاقه في أوقات الترفيه، يبتكرون مشاهد تخيّلية من الجمهورية الرومانية، من روما القديمة، حيث يرتدي زيَّ الرومانيِّ القديم، ويتقمّص شخصيةَ الطاغية، فيخلَعَ عليه شتّى ألوان الاحتقار، ويرتجف صوتُه تحت وطأة التأثّر، وهو يُعلي من شأن العوامّ المسحوقين تحت نيرِ الأرستقراطيين الأشرار، ويحرّضهم

على الثورة، على الجهر بالتمرّد، على الانشقاق. كانت الحريّة تُرى بعيدةً، في الماضي، ويُظنّ أنها لا تُشكّل خطرًا. بل، الأفضل من ذلك: كان الخطيبُ الأشدُّ حماسةً يُكافَأُ، وربّما كانت مكافأتُه نسخةً من مؤلفات القديس إغناطيوس[1].

كان الطغاة أنفسهم مستعبَدين لسطحِ الأشياء. كان يُراد للنّظام والانضباط أن يسودا، وكان يُحكَم على مدى فداحة الفوضى والفلتان من مظهرها الخارجي. فلتتذكّروا الاضطهادات التي طالت أولئك الذين أطلقوا لِحاهم. كانت اللحية علامةً على التمرّد، كما كانت قبل عشرين عامًا ربطةُ العنق الحمراء، والقبّعةُ ذات الأطراف العريضة. ومثلها اليوم: شارةُ الذراع... حين تُرتدى أسفل المرفق. كلُّ من لا يضع شارة الفاشيين عاليةً فوق ذراعه، ويثبتها بإحكام، لا يمكن أن يكون صافيَ النوايا، بل لا بدّ أنّه ينطوي على ميول تخريبيّة أو، أسوأ من ذلك، انهزامية. لقد استمرّ هذا الهوس بالمظاهر في استعباد العقول. فالقبر ينبغي أن يُعاد تبييضُه، ليبدوَ أقرب إلى أحد تلك البيوت الصغيرة النّظيفة التي تسكنها أقزام الليليبوت[2]، لا وكرًا للديدانِ والحشرات. لا

---

(١) القدّيس إغناطيوس دي لويولا Ignatius de Loyola (١٤٩١-١٥٥٦)، هو مؤسّس الرهبنة اليسوعيّة (Jésuites) في القرن السادس عشر، وقد ارتبط اسمه في الذاكرة الكاثوليكية بالتعليم الصارم والانضباط الروحي، كما كان يُحتفى به في المدارس الدينيّة التي تُديرها جماعته. إهداء كتبه يُفهم هنا كمكافأة رمزيّة على الالتزام والانضباط، حتى في لحظة «التمرّد البلاغيّ» التخيّلي.

(٢) ليليبوت: جزيرة خيالية ظهرت في رواية رحلات غوليفر (١٧٢٦) للكاتب الإيرلندي جوناثان سويفت. يسكنها أقزام لا يتجاوز طولهم ست بوصات، وتُستخدم

وجود للضّمير، لا وجود للدّاخل، لا وجود للدّماغ. ما يوجد، هو اللّباسُ/ القشرة، ما يوجد هو الكلمة، ما يوجد هو الجمجمة. يُنتزَع اللفظ من الخطاب؛ ولمّا كان يتعذُّر شقُّ الجمجمةِ فإنّنا نُلقي بها في زنزانةٍ مع الجسد.

إنّ الحاضر يتيح لنا حقًّا أن نعيش الماضي، أن نعيش نفسيةَ رجال الماضي. فهو يضيء أفكارَنا ويجبرنا على تغيير مفرداتنا. فلنُسقط كلمة «طاغية»، ولنستبدلها بكلمة «أبله»، وسيتحوّل الماضي إلى تاريخ معاصر.

٥ فبراير/ شباط ١٩١٨

«ليليبوت» مجازًا للإشارة إلى عوالم ضيّقة، محدودة الأفق، أو مشاهد عبثية مصغّرة تفتقر إلى العظمة أو المعنى. أما عبارة «**بيتٍ نظيف لأقزام ليليبوت**» فترمز إلى نظام خارجي دقيق ومهندم يخفي وراءه فراغًا داخليًا، أو إلى شكلانية صارمة موجهة لكائنات ضئيلة الشّأن، كنايةً عن الاستبداد الذي ينشغل بالمظاهر ويقزّم البشر.

الحريّة والشّطط
(الردّة الإيطاليّة)

أخيرًا مكّنتنا زلّةٌ اقترفتها الرّقابة الرّومانية (نسبة إلى رومانيا، لا إلا روما) بأن نقول إنّ الرفيق لاتساري قد أعتُقل في الخامس والعشرين من يناير، بعدما عَلِق في شَرَك مرسومِ ساكي[1]، بحسب تعبير الصّحف البرجوازية، وهو تعبير يفتقر إلى الصّدق والأمانة.

لا ننوي أن نكتب هنا خطبة عاطفية، فيها شيءٌ من تقزّزٍ، ضدّ الردّة التي غدت تجتاح كلَّ شيءٍ حولنا. فالرفيق لاتساري اعتاد الضّربات القاسية التي توجّهُها له الحياة، أكثر ممّا اعتاد ما تجود به عليه من مباهِجها؛ والحزبُ الاشتراكي لن يتداعى لأنّ أمينَه السياسيّ قد اعتُقِل؛ فالنائب مورغاري قد تولّى المهمة بالفعل، والحزبُ ماضٍ في عملهِ على المنوال نفسه.

---

(١) **مرسوم ساكي**: يُشير إلى مرسوم استثنائي أصدرته السلطات الإيطاليّة في تلك المرحلة، سُمّي تهكّميًّا باسم أحد رجال السُّلطة (ربما وزير الداخلية ساكي)، واستُخدم لتبرير موجة من الاعتقالات التعسفية بحقّ المعارضين، ولا سيما الاشتراكيين. يمثّل في هذا السياق رمزًا قانونيًّا للقمع المُقنّن باسم الأمن والنظام.

إنّما نكتفي ببعض الملاحظات حول ما يجري حاليًا في إيطاليا، بشأن مجمل هذه الإجراءات البوليسية والقضائية التي اعتدنا تسميتها بـ«الردّة». إنّها ظاهرة إيطالية خالصة (وسيظلّ «المرسوم العظيم ساكي» وثيقة ثمينة للباحثين في المستقبل، حول شروط التحلّل والضياع التي يعيشها حاليًا المجتمع الإيطاليّ، البرجوازية الإيطاليّة).

لا يمكن أن نجد مثل هذا الوحش القانونيّ إلا في بلد لا يشتغل فيه أحد، بلد لا عمل فيه يشغَلُ النّاس، بلدٍ تندر فيه العلاقات بين المواطنين، وإن وُجدت فإنّها تكون محدودة وغير ذات جدوى من النّاحية الاقتصادية؛ في أمثال هذا البلد فقط يمكن أن تنشأ مسوخٌ قانونية كهذه التي أنتجتها البلادةُ الديموقراطيةُ التي يتمتّع بها نائب كريمونا. فما معنى أمان المواطنين وحمايتهم من التعرّض المستمرّ لانتهاك الحريّة الفردية، ومن شططِ الشرطة والانتهاكات القضائية، اللّهم إلّا ضمان الشروط المثلى للعمل، والتبادل، والإنتاج، ولانتشار جميع الأنشطة الملازمة للنظام الرأسمالي؟ خلاصةُ القول إنّ ما نشهده اليوم في إيطاليا، من آفات تصيبُ الأقليّةَ النّشيطة المتمتّعة بالذّكاء، ما هو إلا نتيجةٌ حتميةٌ لآلية التنقيص، ولشروط التحلّل والتّيه التي تغرق فيها شريحةٌ من الشعب نسمّيها نحن، تشريفًا بلُغة الاشتراكيين، بالطبقة البرجوازية. في إيطاليا، تعوزنا الدقّةُ حين يتعلّق الأمر بفتح المكاتب، أو بوصول القطارات في موعدها، أو بالحضور إلى موعدٍ في الوقت المحدّد، لأنّ الوقت لا قيمة له، لأنّه لا يُعتبر عاملاً اقتصاديًا للإنتاج.

عشر ساعات أبكَرَ، عشر ساعات متأخّرة، ما الفرق؟ لكن ما هي عشر ساعات بالنّسبة لمن لا يعرف كيف يستثمرها؟ والشيء ذاته ينطبق على الحريّة. ما قيمة الحريّة لمن لا يعرف ماذا يصنع بها، ولمن لا تمثّل له قيمةً اقتصادية، ولا تفتح أمامه إمكانيّة العمل، أو الإنتاج بأيّ شكلٍ من الأشكال؟ إنّ الحريّة الفردية، والحماية من تعسّف السُّلطة، هي ما يسمح بسيادةِ العمل، والإنتاج، وبناء مجتمعٍ منظَّم تنظيماً جيّداً.

أتذكّر حادثةً رواها لي أحد أساتذة الجامعة: قال إنّه خاض ذات مرّة مغامرةً في حديقة هايد بارك بلندن. وما إن بدأ يسردها حتّى راح يرتعش من شدّة الاستياء النبيل. لقد رأى مواطنين يغرسون علَمًا في قلب الحديقة، ثمّ يعتلون كرسيًّا، ويتوجّهون إلى المارّة داعينهم إلى الإصغاء، ثمّ ينطلقون في موعظة. ورأى نحو عشرين واحدًا يفعلون ذلك، كلٌّ منهم يعبّر عن رأيه، محاولًا التبشير بآرائه واستمالة أتباع جُدد: بروتستانت ينتمون إلى طائفة معيّنة، اشتراكيّون، أناركيون[1]، ثيوسوفيون[2]. توقّف الأستاذ أمام أحد

---

(١) الأناركيون: (Les anarchistes) يُشير المصطلح إلى أنصار الأناركيّة أو الفوضويّة، وهي تيّار سياسيّ وفلسفيّ يرفض كلّ أشكال السُّلطة المُفروضة، سواء كانت دولةً أو مؤسّسات دينيّة أو اقتصاديّة. وقد كانت للأناركيّين في أوروبا، خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أنشطةٌ سياسيّة قويّة، وغالبًا ما تعرّضوا للملاحقة والرّقابة. وتُبرز الإشارة إليهم هنا بوصفهم متكلّمين في هايد بارك، كيف أنّ المجتمع الإنجليزيّ قد كفل حريّة التعبير حتّى لأكثر الاتجاهات راديكاليّة.

(٢) الثيوصوفيون: (Les théosophes) أتباع حركة روحية باطنية ظهرت في القرن التاسع عشر، تُعرف بالثيوصوفيا (Théosophie)، وتهدف إلى كشف الحكمة الإلهية

الأناركيين، فشاط غضباً واضطراباً ممّا سمعه، فما كان منه إلا أن قصد فورًا إلى شرطيٍّ غير بعيدٍ منه، فسأله بعينين جاحظتين: «ماذا تصنعون؟ لِمَ لا تمنعون هذا الرّجل من الكلام؟» فردّ عليه الشرطيّ، ببرود الإنجليز المعتاد: «أنا موجود هنا فقط لأمنع من الكلام أولئك الذين، مثلكم، يودّون القضاء على حريّة التعبير». شرطيّ إنجليزيّ يعطي درسًا في الليبرالية لأستاذ جامعيّ إيطالي. في هذه الحادثة الواقعيّة يكمُن الدّليل الأكثر صدقًا على العقليّة البرجوازيّة الإيطاليّة، تمامًا كما يشهد مرسوم ساكي على دونيّتها. صحيحٌ أنّه لا يدعو إلى الفخر أن يكون المرء ضحيّةً لطغمةٍ كهذه، لكنّها وحدها السّببُ الذي يجعلنا نشعر بالأسى على الرفيق لاتساري.

٨ فبراير/ شباط ١٩١٨

المزعومة الكامنة في جميع الأديان والفلسفات. تجمع هذه الحركة بين عناصر من التصوف الشرقي، والغنوص، والمعتقدات الهندوسية والبوذية، وتعتبر أن هناك معرفة خفيّة لا تُدرك بالحواس العادية بل بالحدس والتأمل الباطني. وقد اعتبرها كثير من النقاد انحرافًا صوفيًا غامضًا عن الدين والفلسفة العقلية.

رأسمالية منفلتة
(وجهة نظرنا)

بحسب صحيفة **Giustizia** التي يديرها ك. برامبوليني، فإنّ وجهة نظرنا بشأن فضيحة «النّفايات»[1] ستكون على النحو الآتي: إنّ الرأسمالية تستغِّلُ وتضاربُ -بل يجب أن تضارِبَ وتستغل، وإلا فمصيرها الهلاك- في كلّ وقت، سواء في زمن الحرب أو زمن السّلم. تسعى الرأسمالية إلى إيجاد أسواق لتصريف سلَعِها وتحقيق أرباح لمساهميها، حيثما استطاعت وإلى أقصى ما يمكنها. هذه هي طبيعتها، وهذه هي مهمّتُها، وهذا هو قدرُها. الإيطاليّون يبيعون للألمانَ، والنمساويون باعوا للفرنسيين، والفرنسيون والإنجليز سيبيعون للأتراك. إنّ من طابع الرأسمالية أن تكون عالميةً، والوضع في إيطاليا ليس بأسوأ من نظيرِه في أيّ دولة أخرى.

---

(١) تشير الكلمة هنا إلى نفايات الأقمشة، مثل مخلفات القطن والحرير، التي استُخدمت خلال الحرب العالمية الأولى في صناعة أكياس البارود. وقد اندلعت في إيطاليا آنذاك فضيحة سياسية واقتصادية عُرفت باسم «فضيحة النفايات»، تمثلت في تهريب هذه المواد واستغلال الطلب العسكري عليها لتحقيق أرباح غير مشروعة، مما أثار انتقادات الصحافة الاشتراكية ضد الطابع الطفيلي للرأسمالية زمن الحرب.

تلك إذن وجهةُ نظرنا، وجهةُ نظرٍ نرتبط بها أشدّ الارتباطِ، لدرجة أنّها تتطابق مع وجهة نظر جريدة L'Idea Nazionale. وليس من الصّعب أن نفهم أنّها وجهة نظر تلك الجريدة: فبالنّسبة إليها، قد بلغ توسيع المسؤوليات وتذويبها حدًّا لم يعد معه أيّ أحدٍ مسؤولًا عن أيّ شيء؛ فلنُفرِج فورًا إذن عن كلِّ المساجين، ولنعتقل المسؤول الوحيد: السيّد رأسمال (Sire Capitalisme)؛ فهو من ينبغي أن نلقي به في السجن: هذا المتشرّد الذي لا موطن له، والذي يسكن، في الآن ذاته، في كلّ بلدان العالم.

على أنّ وجهة النّظر تلك لا تمتُّ بِصلةٍ إلى وجهة نظر الاشتراكيين. فحين يكتب الاشتراكيون التّاريخ، أو يدوّنون الوقائع (ولو كانت وقائع محاكم)، فإنّهم يميلون إلى تفادي التجريديات والعموميّات المربكة. وهم يقرّون بأنّ في المجتمع الرأسمالي ميلًا عامًّا إلى الفساد، غير أنّهم لا يخلطون بين المسؤوليات الاجتماعية والمسؤوليات الفرديّة. قد تتحوّل الإنتاجية البرجوازية إلى مضاربة، أو إلى احتيال، أو إلى وهم؛ غير أنّ غايتَها، رسالتَها، ليست قطعًا الاحتيال، بل هي مضاعفة الثروة، أي: زيادة حصيلة الملكية. وتتبنّى وجهةُ النّظر القضائيةُ تلك رؤيةً لاهوتيّة للمجتمع، يحلُّ فيها محلَّ الإلهِ الكلّيِّ القدرة، الكلّيِّ الحضور، الكلّيِّ العلم لدى الكاثوليك، إلهٌ مجرّدٌ مماثل. وبحسبها، تصبح كلّ بحوث المعرفة غير ذات جدوى؛ لا جدوى من التحقيق، ولا من دراسة الوقائع والتّاريخ، ولا من تحليل العادات: فكلّ شيء

سَواءٌ، لأنّ الرأسمالية حاضرة في كلّ مكان، ولا ورقة تتحرّك إلّا إذا شاء الرأسمال.

إنّ مثل هذا القدريّة التجريدية ليست، ولا يمكن أن تكون، وجهةَ نظرنا، لأنها بعيدة كلّ البعد عن الواقع الفعلي. ففي الواقع الفعلي: الرأسمالية تعني الدّولة البرجوازية، تلك التي تتجسّد في القوانين، في الإدارة، في الدّولة البيروقراطية، في السلطات التنفيذية. وهذه الأخيرة، بدورها، تتجسّد في أفراد أحياء، يلبسون، ويعيشون، وقد يكونون من الأوغاد كما قد يكونون من أهل الصّلاحِ. والقوانين ذاتها، أي القانون الجنائي، هي ما يُعاقب مهرّبي «النّفايات»، ممّا يعني أنّه لا ينبغي أن نراهم رأسماليين مجرّدين، بل رأسماليِّين من لحمٍ ودم، أناسًا قد أساؤوا التصرّف. أمّا عن وجهة نظرنا نحن، فها هي: إنّ في التّنظيم البرجوازي للمجتمع الإيطاليّ، أجهزةُ رقابة لا تعمل، وهي بذلك تضرّ الإنتاجَ الرأسماليّ الحقيقيّ، لأنّها تسمح لأناس منحرفين، مجرمين، بأن يستمرّوا في أعمالهم مدّةً أطول بكثير من المدّة التي يفترض أن ينكشف فيها عملٌ مشبوه إلى هذه الدّرجة. ممّا يعني أنّ التنظيمَ البرجوازيّ الإيطاليّ سيّئ حتى من وجهة نظر الرأسمالية ذاتها.

ويقع على عاتق البروليتاريا ألا تُخفّف الضّغطَ عن النظام القائم، بل أن تسهر على تجدّده وتطوّره بحيث يصير دائمًا أكثر ملاءمة للإنتاج، ولمضاعفة الثروات. ينبغي أن يبقى الضغط قائمًا إلى أن تنحصر الهيمنةُ البرجوازية في تلك الأوساط، وفي أولئك الأفراد

الذين يجعلون بفضل نشاطهم الرأسماليّ الشّريف، من شروط الحياة الاجتماعيّة، الآليةِ والطبيعيةِ، ظروفًا أنسبَ لتحوُّل الطبقاتِ داخل السُّلطة. لهذا السبب يريد الاشتراكيون أن تتّصف أجهزة الرّقابة بالكفاءة، وأن تتمتّع بسلطةٍ فعليّةٍ تكون قادرةً على ممارستها. وحدهم الاشتراكيون يستطيعون بثّ الرّوح في مثل هذه الرّغبات، لأنّ لا مصلحة شخصيّة لهم في هذه القضيّة، ولأنّهم أبعدُ النّاس عن جحيم السُّلطة. ولن يرضوا بالاكتفاء بالمجرّدات، ولا بالمسؤوليات العامة. فالحقيقة أن ثمّة بيروقراطيةً كان ينبغي أن تراقب النشاطَ التجاريَّ للصّناعيين المشتغلين بـ«مخلّفات القطن»، وهنالك سلطةٌ تنفيذية كان ينبغي أن تتّخذ إجراءاتٍ تحول دون المضاربة. فماذا فعلت البيروقراطية؟ هل أدّت ما عليها من واجب؟ وإن لم تكن قد أدّته، فلماذا؟ ينبغي فتح تحقيقٍ، ينبغي تحديد المسؤوليات. ينبغي التخلّص من العاجزين والفاسدين. إنّها لحظةُ امتحان حقيقية بالنّسبة إلى النّظام: إذ لن يستطيع أن يثبت وجودَه ويرسّخ نفسَه إلّا متى كان قادراً على الاضطلاع بوظيفته الاجتماعية. لكن، ما دام ليس ثمّة من يجبره على خوض هذا الامتحان، فإنّه سيترسَّخ ويَثبُت في ظلِّ اللامبالاة العامّة، لامبالاة أولئك الذين يستلذّون بالحديث عن الرّأسمالية التي لا تهتزّ ورقةُ شجرةٍ دون مشيئتها.

١٦ آذار/ مارس ١٩١٨

IV

آفات الدّولة الإيطاليّة

ضدّ البيروقراطية
(في مديح بطلٍ)

نقلت بعض الصّحف خبر حاجبٍ في وزارة التربية الوطنية، اعتُقل، لأنّه اعتاد أن يُهرّب من مكاتب الموظّفين ملفّاتٍ ضخمة، ليبيعها بوصفها أوراق مسوّدات، فيجني من ذلك بعض المال، في هذا الزمن الذي لا تكفُّ فيه الأسعار عن الارتفاع، وصار فيه الورق غاليًا غلاءً فاحشاً.

بالطّبع سيكون مصيره مصيرَ جميع العباقرة الذين لم يُفهَموا: سيُدان ويُطرد من عمله. ومع ذلك، لو أنّ العدالة كانت، ولو قليلاً، أقل بيروقراطيةً وأقلّ تصلبًا، لكان عليها أن تبرّئَ هذا المجهول وترفعَه إلى مصافّ الأبطال. وفعلاً، بينما لا تتوقّف الشكاوى منذ سنوات عن التنديد بالبيروقراطية، بينما تتعاقب الدراسات واللجان من أجل إصلاح الإدارات العمومية، بينما ليس ثمّة وزيرٌ لا يريد أن يبدو تحديثيًا ويكسب شيئًا من الرّضا لدى الصحافة، ولا يدشِّنُ عهدتَه بأن يتعهّد، بأشدّ الأساليب مهابةً، أن يبدأ عملية

اجتثاث البيروقراطية على نطاق واسع، ثم ما يلبث أن يترك نفسه ينساق، انسياقاً لا مفرّ منه، تحت وطأةِ العادات، وسط تروس هذا الوحشِ الكاسر الذي لا يلين؛ قلتُ، بينما الواقع كما أسلفتُ، انبرى هذا المجهول، هذا المتواضع، ليبيِّن لنا أبسط الطُّرق الممكنة وأسرعها للتحرّر من تلك الجبال الورقية التي يئنّ تحتها أناسُ القرن العشرين، متقلّبين عبثًا، باحثين عن شيء من الرّاحة.

تخيّلوا إذن مقدار التحرّر الذي كان سيتحقّق لو أن محرقةً عظيمةً التهمت كلَّ الملفات المكدّسة بالآلاف فوق الطاولات والرّفوف، وتخيّلوا الرقصةَ التي كان سيؤديها آلاف الأشخاص من كلِّ صنفٍ، من الجلّادين والضحايا معًا، وقد صاروا أخيرًا يدًا في يد. لأنّ أشقى الأشقياء حقًا، أشدّهم بؤسًا على الإطلاق، هم أولئك المساكين الذين يُضطرّون إلى توقيع هذه الملفات، وإلى معالجتها وتسمينها بمزيدٍ من الأوراق. أن تكون محكومًا بعملٍ تعرف سلفًا أنّ تسعين في المئة منه عبثيٌّ، أن تُمضي وقتك في كتابةِ رسائلَ تعرف تمامًا أنها لن تُؤخذ على محمل الجدّ من طرف الإدارات المختصّة، أن تطلب -بأسلوبٍ روتينيّ- أجوبةً تعرفها سلفًا كلمةً كلمة، كلّ ذلك فقط لأنّ من الضروري التعامل مع الملفّ، لأنّ هناك رئيسَ المصلحة، ورئيسَ القسم، ونائبَه، ورئيسَ المكتب، وربّما دقّق أحدُ هؤلاء في العمل، فلاحظ أنّ المنشور رقم ١٢٥٠١ المؤرّخ في عام ١٨٩٨ لم يُحترم بدقّة، أو أنّ «أمر الخدمة» لم يُتّبع... تصوّر أن تمضي حياتك كلّها في هذا الامتحان الأحمق، الذي يتسبب في خَرَف

العقل رويداً رويداً: هذا هو العذاب الذي لم يكن دانتي نفسه ليُنزله إلا بمن قتلوا آباءهم! ولا مفرّ من ذلك. فكلّ محاولةٍ تمرّدٍ محكومٌ عليها بالفشل: عليك أن تنحني وتُطيع وتصمت، حتى لو قضى رئيسُ مكتبك يومه في فرز البريد وتقسيمِه على ملفات مختلفة ليمرّ به جميع الرؤساء في الهرَمِ ويمهرونَه بتوقيعهم، ولكي يتحقّق هو ممّا إذا كانت تلك الرّسائل قد صيغت وفق «المعايير»، وهل استُعملت الصِّيغُ الطقوسية مثل «مع فائق الاحترام» و«ببالغ العناية»، وهل استُعملت الاستمارات الصحيحة التي ينبغي للرؤساء أن يوقّعوا أسفلها؛ حتى لو أضاع مسؤول كبير وقته في هذا، ودفع المواطنون الثمن، فقط ليُصحِّح رسالةً من خلال إعادة صياغتها جملةً جملة، كلمةً كلمة، كما لو كان يريد أن يبرهن أنّ لديه أسلوبًا. وحتى لو كان هناك دومًا زميلٌ لطيف يُسلّي تلك الساعات القاتلة التي تمضي في المكتب، بأن يحكي لنا **قصة النموذج الإداري**... أتعرفون قصة الطابع البريدي؟

كان يا ما كان، رئيس مكتب كبير في مؤسسة من مؤسسات الدّولة. نال ترقيةً وأُرسل إلى قسمٍ آخر. وأثناء تنقّله هذا بين الأقسام، ضِمن حركةِ تنقّلٍ كبيرة شملت كبارَ المسؤولين، اضطرّ إلى البقاء بضعة أشهر أخرى في مكتبه القديم، مع قيامه بالأعمال التي يفرضها منصبه الجديد: أتظنّونه يرضى بالبقاء على لقبه القديم وقد ترقّى فعلاً في الدّرجة؟ وماذا عن كرامته؟ ومقامه؟ لذا أمر بطباعة نحو خمسين نموذجًا جديدًا، وزّعها على المكاتب الدُّنيا

كيلا يُطبع اسمُه في الرّسائل الرّسمية بصيغةِ «رئيس القسم»، بل بـ«رئيس إدارةٍ من الدرجة الأولى يُشرف على القسم». وكما هو متوقّع، ما إن وصل من خَلفه حتى أُلقي بالنماذج الجديدة في سلّة المهملات، وأُعيد استخدام القديمة، لكن الدّولة، في الأثناء، كانت قد أنفقت بضع مئاتٍ من الليرات!

وما زلتم، أنتم، تؤمنون بإمكانية تجديد الإدارة البيروقراطية؟ لا شيء يُجدي، سوى النار، المحرقة، الثورة؟ بل حتّى ذلك غير مضمون...

٣ نيسان/ أبريل ١٩١٨

بيروقراطيو الدّولة
(ضمير الرّقباء)

إنّ إحدى أخطر الآفات التي تنخر المجتمع الإيطاليّ المعاصر، هي انعدام الضّمير لدى موظّفي الإدارات العمومية. تسعون في المئة من الويلات التي يتكبّدها بلدُنا كلَّ يوم، مصدرها موظفو الإدارة الذين لا يؤدّون واجبهم، ولا يتحلّون بروح المسؤولية، والذين حوّلوا الدّولة إلى ضربٍ من الفردوسِ الأرضيّة تُمنح فيها أعلى الأجور مقابل بعضِ الرّقع على السراويل[1] وتوقيعاتٍ أسفل استمارات لا يكلّف أحدٌ نفسه عناء قراءتها. إنّ عقليّة البيروقراطيين هي نفسُها عقليةُ ذلك الفلّاح الذي يتذكّر أحلى أيّامِ حياتِه، اليوم الذي تمكّن فيه من أن يهرّبَ إلى المدينة دجاجةً أو قطعة نقانق، من غير أن يدفع للجمارك رسوماً؛ وهي عينُها العقلية المعادية للمجتمع، عقليّةُ الرّاكب الذي يحاول بشتّى الطّرق الممكنة أن يتفادى دفع تذكرة الترام، بل ربّما حتى تذكرة رحلة طويلة بالقطار.

---

(١) يقصد أنّ سراويل الموظّفين تبلى لكثرة جلوسهم متبطّلين لا يفعلون شيئاً، فيضطرّون إلى رقعها.

هي عقليةٌ لا-اجتماعية محض، أنانيةٌ ليست سوى الحيوانيةَ خالصةً تسعى إلى أن تتحلّل من كلّ عبء، من كلّ مسؤوليةٍ في السلسلة الاجتماعية التي يُفترض أن يتحمّلها الجميع.

إنّ الموظّفين، في غالبيتهم العظمى، لم يحصلوا على مناصبهم بفضل كفاءاتهم، أو مهاراتهم التقنية أو ذكائهم، بل بفضل طرق ملتوية، أو دعمٍ من الماسونيين، أو ببساطة بباعثٍ من الشفقة؛ لا شكّ في أنّها الشفقة: فالإدارة العمومية لا تُعدُّ، لدى الغالبية العظمى، عضواً دقيقاً من أعضاء الحياة الاجتماعية، بل ملجأً للمعاقين، لفقراء العقل، للّذين لا يملكون طاقة، للّذين لن يفلحوا أبداً في نضالهم من أجل كسرة خبز ومأوىً نظيفٍ وآمن. والإدارة العمومية هي المسؤولة عن آفات الحياة الاجتماعية، إنها تُلقي بتناقضاتها على روابط المجتمع المدني. ذلك أنّ العمل المفيد ينبغي أن يوزّع ثمارَه على عددٍ لا نهائي من الأشخاص عديمي الجدوى، وهو ما يتسبّب في أضرار، وفي تبديد للثروات. لا بأس، فالموظفون قد خَلقوا نوعاً من الدّولة داخل الدّولة. إنهم يقمعون المواطنين بطغيانٍ منقطع النظير، طغيانٍ غير شخصيّ وغير مسؤول في آنٍ.

لا يعجبنَّ القرّاء أنّ هذه التوطئة إنّما كُتبت تمهيدًا للكلام عن الرّقابة. فموظفو الرّقابة هم النموذج الأعلى لكلّ نموذج. جرى تجنيدهم دونما ظلّ دليل على أيّ كفاءةٍ، بمقاييسَ اعتباطيّةٍ تبر[illegible] شبيهةٍ بإحسان اجتماعيّ بائس، فانقلبوا إلى مصّاص دماءٍ [illegible]

يشفط دمَ الحياة الوطنيّة، لا همَّ له إلا تجفيف ينابيع الذكاء، والجِدِّ، والمسؤولية.

كأنّ مهمّتهم، في جوهرها، لا تفعل سوى أن تبرّر تلك القاعدة القديمة التي كان يتمسّك بها الجمهوريون المتطرّفون: «كلّما ازداد السوء، كان الأمر أفضل». أمّا الأكثر اعتدالًا، فمتى أبصروا إلى أيّ درَكٍ من البربريّة الفكريّة تقودُنا غباوةُ الرقباء، وغيابُ كلّ معيارٍ، وابتذالُهم الثقافي، ومسؤوليتُهم المنعدمة التي تُخفي نفسها وراء ابتسامةٍ بلهاء، فإنّهم لا يملكون إلا أن يرتجفوا امتعاضًا، وتنتابهم قشعريرةُ خوفٍ على مصير الرّوح الإنساني، وسرعان ما تنفتح نفوسهم لتقبّل أبعد القرارات وأشدّها تطرّفًا.

كلُّ إنسانٍ حيٍّ فيه احترامٌ صادقٌ للعمل والإنتاج، مهما كان نوعه، ومهما كان فاعله، يفقهُ جيّدًا هذه الحالات النفسية. إنّه ذلك الشعور القاتم بالغثيان، وتلك الكآبة الأخلاقيّة التي تجعل العالم يبدو، بأسره، ضائعًا، مُكتنَفاً بالظلمة. فإن كانت حفنةٌ قليلة من المسؤولين، الموكول إليهم حصريًّا واجبُ الانضباط والجدّيّة، لا يشعرون بهذا الواجب، ولا يطيعون إلا أهواءهم ونفورهم من الجهد، وينطرحون أرضًا أمام أحطّ عواطف النفس، فبأيّ قوّة يمكن إقناعُ الآخرين بالانضباط، والسكينة، والطاعة، والعقل، ومقاومة النزوات، والتقلّبات، وشعور انعدام المسؤولية الذي يُظهره بعضهم ضمن جمهورٍ كثير؟ إنّ أولئك الذين يتصوّرون الحياة صراعًا هادئًا من أجل الحقيقة والصالح العامّ، ويجعلون من

كبح جماح العواطف والاندفاعات واجبًا باطنيًا في كلّ فعلٍ، لأنّ الواقع ليس هباءً زائلًا، بل يحمل في صميمه سمات التاريخ الأزليّة التي لا تُمْحى، هؤلاء يظلّون دومًا فريسةً لليأس، ويُضطرّون إلى بذل جهدٍ هائلٍ على أنفسهم كي لا ينزلقوا في دوّامة السخط العنيف والانفعال غير المسؤول.

لكنَّ الموظف لا ينفكّ يُظهِر طبيعتَه. إنه يجتاز كلّ شيء ويجتاز الجميع، لا همَّ يشغله سوى ألّا تبلى مؤخّرةُ سرواله أكثر من اللّازم، وألا يُجهد مادّتَه الرمادية أكثر ممّا ينبغي. إنّه أشبه بقوّة طبيعية، متناقضة وعديمة الذكاء. يُبرّر الرقّيب عمله بالتبييض؛ ثمّة صحيفة يبدو أنّها في خطرٍ بسبب برنامجها العام؛ يستمتِع الرّقيب بإبراز ذوقِه الذي ينمّ عن رجلٍ فظٍّ، فيرسم رسومًا، ويطلق يده على الصّفحات التي كلفت جهدًا ومالًا ليجتث منها السواد، فيبرزُ البياضُ مُشكِّلاً لوحةً جميلةً. لأسباب جمالية إذن، يمحو الرّقيب ما كان قد سمح به قبل خمسة عشر يومًا، ويمنع ما كان قد سمح به في صحف أخرى.

[يحدث مثلاً أن يتسلّى بتقمّص دور طبيب الأسنان، فيقتلع من صفحات الجريدة كلّ الكلمات من قبيل «الرأسمالية» و«رأسماليّ». وبابتسامة تنمّ عن التعالي، يُنكر أن «التّاجر الإنجليزي، الواثق من نفسه، المعتاد على تدبير أموره، المنسجم تمامًا مع التقاليد التجارية الخاصّة ببلده منذ قرون، التقاليدِ التي صنعتها التبادلات على طرق الماضي التي فتحها الأسلاف؛ قلنا هذا التّاجر الذي أصبح ضابطًا

في الجيش، ينظّم جنوده في مواجهة اليُنكر (Junker)[1] الذي يعتمد كلياً على الدّولة، على قوّة الدّولة الألمانية وبقائها ومستقبلها». إنه يُنكر أنّ «ضابط الصفّ الإنجليزي هو نفسه ذاك الشابّ البريطاني التّاجر الذي لم يكن محتجزًا في وطنه بمقتضى الالتزامات العسكرية، فقضى ريعان شبابه يجوب العالم بخطىً منسّقة، وحيثما حلَّ يكون دائمًا في بلاده، دائمًا تحت حماية قوانينها، سواء حلّ في أوروبا، أو آسيا، أو أمريكا، أو أفريقيا، أو أستراليا؛ وكان لا بدّ أن ينتهي به المطاف وجهًا لوجه مع المندوب التجاري الألماني، ذلك الممثّل التجاري الذي نعرفه حسن معرفة من خلال ترحاله، دؤوبًا، مثابرًا، يواصل، لمصلحته ولمصلحة المؤسسة التي يمثّلها، العمل الذي قد وضعَ أساسه في الماضي لتكثير المبادلات التجارية، وإنعاش الرغبة في الرفاه عند البشر.

أمّا الرقيبُ، فهو مثاليّ كشخصيةٍ مانزونية في شعر كاردوتشي، يناسبه تماماً المثل «جعجعة ولا أرى طحيناً»[2]، وهو يرى من

---

(١) كلمة ألمانية كانت تُستخدم للإشارة إلى الطبقة الأرستقراطية العسكرية أو ملاّك الأراضي البروسيين، خصوصًا في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. وقد كان لهم دور سياسي واجتماعي كبير، ويمثلون غالبًا التوجّه المحافظ والسلطوي داخل الدّولة الألمانية.

(٢) المنزوني نسبة إلى أليساندرو مانزوني (Alessandro Manzoni، ١٧٨٥-١٨٧٣)، شاعر وروائي إيطالي بارز، يُعدّ من أعمدة الأدب الإيطاليّ الحديث، ومن أبرز ممثلي النزعة الأخلاقية المسيحية في الأدب. أما كاردوتشي (Giosuè Carducci، ١٨٣٥-١٩٠٧)، فهو شاعر وناقد أدبي حصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٦، وقد عرف بمواقفه السياسية المناهضة للكنيسة وبأسلوبه الخطابي الصارم. في هذا السياق، يُنتقد كاردوتشي لتبنّيه «المنزونية» في مقاطع من شعره، أي تلك النزعة الأخلاقية أو

الشّطط أن يقال إنّ هذه الحربَ حربٌ رأسمالية، ويعزو ذلك لسخافةٍ مزعومة، متجاهلًا حقيقةَ أنّ المكينات المشتركة فيها لا يمكن أن ينتجها إلا مصانع عملاقة من مصانع الصّناعة الحديثة، وقبل كلّ شيء لأنّ الجنود الإنجليز والألمان هم أنفسهم نتاج وسطٍ اجتماعي قوامُه الكفاح، والانضباط، والمقاومة، وسطٍ لا يمكن أن يكون إلّا نتاجاً للمجتمع الرأسماليّ. إنّ التبرير الاقتصادي (بالمعنى النّبيل للكلمة، أي باعتبار أنّ الجنود البريطانيين لا يسعون إلى تحقيق أيّ مصلحة شخصيةٍ مباشرة) لا يُقنع الرقيبَ الذي تكوّنت لديه عقلية رخوةٌ لا تقلّ سذاجة عن عقلِ طفلٍ، عقليّةٌ شكّلها الحسّ الشعبي لدى **فرافيلّا** حين يُؤدّي دور **تيكوبّا**[1]. إنّ تيكوبّا مثاليٌّ، يَضرّ بالمجموعة لأنّه لا يعمل ويعيش على جهد الآخرين، لكنّ حساسيته المثاليةَ دقيقةٌ إلى حدّ أنّه يغتاظ إذا ما تفوّه أحدهم بكلام سيّء عن غاريبالدي.

ولا يمكن لأحد أن يدافع عن الحقّ في حريّة الفكر، أو عن الحقّ في العمل! فالأخبار الأكثر تداولًا قد جُرّدت من كلّ مضمون: يُقال إنّ الرسالة الثانية التي وجّهها اللورد **لاندزداون إلى الديلي تلغراف**

الخطابية المستلهمة من مانزوني، التي تُدين الانخراط النضالي العقيم أو تُقزّمه إلى مجرّد سعي للحصول على «أربع أُجَراء لأجل طبق حساء» (che tiri quattro paghe per il lesso)، أي نشاط لا طائل منه سوى ضمان وجبة ساخنة في البيت. والمعنى: كثيرٌ من الضّجيج لأجل لا شيء، وهو ما يؤدّيه المثل العربيّ الذي سُقناه.

(١) إدواردو فرافيلّا (١٨٤٦-١٩١٥): ممثل مسرحي إيطالي، شارك أيضًا في أفلام صامتة. أشهر أدواره شخصية تيكوبّا في ثلاثية: **تيكوبّا العاطل عن العمل، تيكوبّا المهرّج، عثور تيكوبّا** (١٩١٣).

نُشرت في ٥ مارس؛ وأنه في اليوم نفسه (راجِعوا صحف تورينو بعد بضعة أيام) انعقد في **إسكس هول** المؤتمر الثاني لـ«لاندزداون - العمل»، برئاسة البروفيسور **هيرست**، الاقتصاديّ الشهير المنتمي إلى مدرسة التجارة الحرّة، وقد حضره نحو أربعين نائبًا برلمانيًا[1].

أمِن جدوى في أن نواصلَ؟ فلنختم بإشارة نوجّهها إلى السلطات المختصّة، عسى أن تُخفّف قليلًا من الأعباء التي تُلقيها على كاهل دافعي الضرائب الإيطاليّين لقاءَ خدمةٍ من نفس النوع. منذ بضع سنوات، عمدت زمرةٌ من الرسامين الباريسيين إلى ربط فرشاةٍ بذيل حمار، فحصلوا، من غير عناء كبير، على لوحة قُبِلت في معرض طليعيّ، واحتُفي بها بوصفها عملًا حاسمًا من الأعمال المستقبلية[2]. ومن بين رقباء **جريدة غريدو**، نجد رسّامًا سابقًا تحوّل إلى الرّقابة (وهذا من خصائص النّمط الإيطاليّ في توظيف الإداريين):

---

(١) هنري تشارلز كيث بيتي-فيتز موريس، خامس مركيز لاندزداون (١٨٤٥-١٩٢٧): سياسي بريطاني شغل مناصب عليا مثل حاكم عام كندا، ونائب الملك في الهند، ووزير الدّولة للحرب، ووزير الخارجية. في عام ١٩١٥، بعد تقاعده من الحياة السياسية، انضمّ إلى حكومة الائتلاف الحربي التي شكّلها هربرت هنري أسكويث، بصفة وزير بلا حقيبة. وفي ٢٩ نوفمبر ١٩١٧، بعد أن رُفضت دعوته لاستئناف الاتصالات مع أعضاء الحكومة، نشر في جريدة *The Daily Telegraph* رسالة دعا فيها إلى سلام تفاوضي مع الألمان. وقد قوبلت رسالته هذه بنقد شديد، واعتبرها البعض فعلًا مشينًا.

(٢) أثناء صالون جمعية الفنانين المستقلين لسنة ١٩١٠، قُدّمت لوحة بعنوان **غروب شمس على البحر الأدرياتيكي**، منسوبة إلى الرسّام جواكيم رافائيل بورونالي (وهو اسم مستعار). لم تُخفِ الصحافةُ حيرتها، ثم تبيّن لاحقًا أن اللوحة رسمها حمار اسمه **لولو**، قام أحدهم بربط فرشاة إلى ذيله، وتركه يتحرّك فوق القماش. وقد قُدّمت هذه الخدعة لإثبات زيف بعض الاتجاهات الفنية.

فلنستبدله إذن بذيل حمار؛ فالمساحات البيضاء التي سيلطّخها القلم الأزرق المربوط بذلك الذيل الطليق، لن تُغضبنا ولن تثير سخطنا، وسيفهمُ الجميع أنّ الغرض من ذلك إنّما هو تبسيط البيروقراطية، وتوفير النفقات على دافعي الضرائب. سنظلّ هادئين. شجاعَةً يا سادة، فبضعةُ ليرات لشراء قليل من العلف، خيرٌ من مئات الليرات في الرواتب. نفس الخدمة، وربّما بمزيد من الذكاء. وبدلًا من أن تُرغمونا على مضغ العلقم، ستجعلوننا نبتسم: والابتسامة بدورها سلعةٌ نادرة، ولا ضير في أن تُوزَّع قليلاً في السّوق.

٦ نيسان/ أبريل ١٩١٨

الانبعاث[1] واتّحاد إيطاليا
(الماضي والحاضر)

لقد بتنا نعرفُ، بأدّقِ تفاصيل المعرفة، -كما كتب رودولفو موندولفو[2] في المجلة التّاريخية الجديدة- النُّظمَ القمعية التي

(١) الانبعاث (Risorgimento) تعني حرفياً «القيامة من جديد»، ويُصطلح عليها في أدبيات التّاريخ بـ«توحيد إيطاليا»؛ وهي التسمية التي تُطلق على حركة توحيد إيطاليا التي جرت بين ١٨١٥ و١٨٧١. لم تكن مجرد مشروع سياسي بل مثّلت أيضًا مسارًا ثقافيًا وفكريًا طموحًا، جمع بين الثورة والتحرّر القومي، وسعى إلى إنهاء تجزئة شبه الجزيرة الإيطاليّة، وتحريرها من السيطرة النمساوية. انخرط فيها مفكّرون، وأدباء، وثوّار، وأدت إلى إعلان مملكة إيطاليا الموحدة سنة ١٨٦١. وقد لعبت مفاهيم السيادة القومية والحريّة السياسية والنهضة الثقافية دورًا محوريًا في تشكيل خطاب الانبعاث.

(٢) رودولفو موندولفو (١٨٧٧-١٩٧٦)، فيلسوف ومؤرّخ إيطالي مختص في تاريخ الفلسفة، ألّف عددًا من الدراسات، منها: المادية التّاريخية عند فريدريك إنجلز (١٩١٢)، على خطى ماركس (١٩١٩)، اللّامتناهي في فكر الإغريق (١٩٣٤)، الفكر السياسي في النهضة الإيطاليّة (١٩٥٩)، تشيزاري بيكاريا (١٩٦٠)، الوعاة الأخلاقيون الإغريق: الضّمير الأخلاقي عند هوميروس وأبيقور (١٩٦٠)، من أرديغا إلى غرامشي (١٩٦٢). اضطر إلى المنفى بسبب القوانين العنصرية، فأنهى حياته في الأرجنتين. أمّا المقال الذي يرد ذكره عند غرامشي، فيحمل عنوان: الروح الثورية والمعنى التّاريخي، وقد نُشر في الجزء الثالث من المجلد الأول لمجلة المجلة التّاريخية الجديدة (Nuova Rivista Storica)، في عدد يوليو-سبتمبر ١٩١٧، وهي مجلة أسّسها كورادو باريا غالو سنة ١٩١٧ بهدف تقريب البحث التّاريخي من حاجات الحاضر. جدير بالذكر أنّ النسخة التي أحال عليها غرامشي هي إصدار لاحق نُشر

انتهجتها الحكوماتُ، والشّططَ الذي مارسته الشرطة، ونفادَ صبر الوطنيين وجرأتَهم، والتآمرات، وعمليّات التفتيش، وحركات الانتفاضة وما تلاها من قمعٍ، وهي كلّها تشكّل الجزء الأكثر وضوحًا والأكثر طرافةً في تاريخ توحيد إيطاليا (Risorgimento). لقد سُردت حياةُ من شاركوا في كلّ هذه الأحداث بتفصيلٍ كثير، سواء أكانوا من الشّخصيّات الأساسيّة أو من الأسماء الثانويّة. وقد نُشرت، في نُسخٍ كثيرة، تقاريرُ الشّرطة، ووقائعُ المحاكمات، ورسائلُ المتآمرين والوُشاة، وأقوالُ المدانين والجلّادين.

ومع ذلك، ما تزال ثمّة حاجة إلى كتابة تاريخٍ لـتوحيد إيطاليا؛ والأدهى من ذلك كلّه، أنّ معظَم المؤرّخين لا يعيرون أيّ اهتمامٍ لجمع الموادّ التي من شأنها أن تتيح لهم كتابة هذا التّاريخ. فلكي نكتب التّاريخ (بالمعنى الأرفع والأشدّ جديّةً للكلمة)، لا يكفي أن نكشف المظهرَ الخارجيّ والسطحيّ للأحداث، بل لا بدّ من فهم دلالتها وتبيّن أعماقِها، والوقوف على الأسباب الأكثر خفاءً، تلك التي تتيح لنا الرّبط، داخل وحدةٍ جوهريّة ومتماسكة، بين اختلافِ الظواهر الخارجيّة وتعدّدِها. ينبغي أن نكشف القوى الغامضة التي تُحرّك هذا الجسد الاجتماعيّ، والتي لا تمثّل هذه الأحداثُ إلاّ تجلّياتٍ لها؛ فهي ليست سوى زَبَد الموج فوق سطح البحر.

باسم U. G. Mondolfo، وهو شقيق رودولفو، واسمه الكامل: أومبرتو غاليليو موندولفو، (١٨٧٥-١٩٥٨)، وكان اشتراكيًا مقرّباً من السياسيّ فليبو توراتي Filippo Turati (١٨٥٧-١٩٣٢)، لكنّه ليس صاحب المقال الذي ينتقدُه غرامشي.

إلى الآن، لم نكد ننجز سوى تجميعٍ لوقائع زمنيّة تهمّ مسار التوحيد الوطنيّ الإيطاليّ، وهي كتاباتٌ تحفَلُ، على درجاتٍ متفاوتة، بصنوف الشّعر أو الخطابة؛ أمّا التّاريخ الحقيقيّ، فلمّا يُكتَب بعد.

قلائلُ هم من حاولوا أن يعرفوا، على نحوٍ معمّق، كيف كانت أوضاع التّنمية الزراعيّة، والصناعيّة، والتجاريّة، والقانونيّة، والتعليميّة، إلخ التي خلّفتها الهيمنة الفرنسيّة في إيطاليا بعد عام ١٨١٤، وتابعوا عن كثب ما حصل من تقدّم في تلك المجالات، خلال السّنوات اللاحقة، مثل ١٨١٨، ١٨٥٩، ١٨٦٦، ١٨٧٠.

لقد ساهم المؤرّخون الإيطاليّون في أبحاثٍ تتناول نموّ أو تراجع عدد السكّان في روما، وأثينا، وسيراقوسة في العصور القديمة، أو في ميلانو، والبندقيّة، وفلورنسا في العصور الوسطى؛ كما درسوا توزيع الملكيّات الزراعيّة، والإنتاج الزراعيّ في صقلية وسردينيا تحت الهيمنة الرومانيّة، والإنتاج الصناعيّ في فلورنسا في العصور الوسطى، والحركة التجاريّة لجمهوريّة البندقيّة. أمّا حين يتعلّق الأمر بمرحلة الانبعاث (Risorgimento)، فيكاد أغلبُهم يعتبر أنّ دراسةَ مثل هذه المعطيات لن تفيد في فهم الوقائع التي قامت عليها الوحدة الإيطاليّة الوطنية أو تشكّلت عبرَها.

كذلك حركةُ الفكر لم تُتناوَل إلّا على نحوٍ ناقصٍ مجتزَأ. اهتمّ الباحثون، في المقام الأوّل، بعقائد جوزيبي ماتزيني. وأُهمِلت أبحاثٌ أخرى رغم أنّها يُفترض أن تكون حاسمةً، فأغفل الباحثون الأفكار المبثوثة في الكتب، والكُتيّبات، والمقالات، والخُطب التي خلّفها كلُّ

من جوبرتي، ودي بالبو، وتومازيو، ودازيليو، وكافور وكاتّانيو، وبضعة مفكّرين غيرهم[1]. على أنّ هذا لا يمثل إلا جزءًا ضئيلاً من تيار الأفكار الكبير الذي يركّز على دراسة قضايا الحياة المادية والروحية، ويخضعها إلى أنماط عديدة من البحث، ويبيّنُ ترابطاتها أو يتناول مسألة الوحدة القومية الإيطاليّة في كاملِ تعقيدِها، ساعيًا إلى إضاءتها انطلاقًا من مبادئ قانونية واجتماعية وفلسفية.

يشير موندولفو إلى النّقاشات التي جرت في إيطاليا قبل عام ١٨٤٨ بشأن إنشاء نظامٍ جمركيّ موحِّدٍ بين دُوَل شبه الجزيرة. وصَل داعيةُ الحريّةِ الجمركيّة، الإنجليزي ريتشارد كوبدن، إلى إيطاليا مطلع سنة ١٨٤٧، واستُقبل بحماسٍ وحفاوةٍ في تورينو وبولونيا وفلورنسا وروما[2]. استقبله البابا بيوس التاسع واستمع إليه، يوم ٢٢ فبراير من السّنة نفسِها، فجدّد كوبدن أمامه الاقتراحَ الذي سبق أن وجّهه إلى الليبراليّين في تورينو وفلورنسا، والدّاعي إلى اعتماد إجراءٍ جمركيٍّ موحّد باعتباره الوسيلةَ الوحيدة الفعّالة للدّفع نحو اندماج الشعب الإيطاليّ. وأضافَ، على ما يذكر مينغيتي في مذكّراته

---

(١) جوزيبي ماتزيني (١٨٠٥-١٨٧٢)، فينتشنزو جيوبرتي (١٨٠١-١٨٥٢)، تشيزاري بالبو (١٧٨٩-١٨٥٢)، نيكولو تومازيو (١٨٠٢-١٨٧٤)، ماسيمو تاباريلي دازيليو (١٧٩٨-١٨٦٦)، كاميّو بنسو، كونت كافور (١٨١٠-١٨٦١)، كارلو كاتانييو (١٨٠١-١٨٦٩): أورد غرامشي أسماءهم ضمن لائحة المنظّرين الأساسيين والفاعلين السياسيين في **حركة الانبعاث الوطنية الإيطاليّة** (Risorgimento). وقد كان بعضهم أيضًا مؤرّخاً.

(٢) ريتشارد كوبدن (١٨٠٤-١٨٦٥): صناعيّ من مانشستر، كان أيضًا رجلَ دولة قويًّا وبارزًا. ورغم كونه راديكاليًا وليبراليًا في آن، فقد كان من أبرز منظّري حريّة التجارة.

Ricordi[1]، أنّ مشاريعَ سكك الحديد، التي كانت قيد التخطيط أو الإنشاء، تجعل من هذا الاتحاد الجمركيّ ضرورةً مطلقة.

في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٤٧، وبمبادرة من البابا بيوس التاسع، تمّ التوقيع على مسوّدة قانون جمركيّ يشمل فقط الدّولة البابوية، وتوسكانا، وبييمونتي، لكنّ هذا القانون لم يدخل حيّز التنفيذ، لا آنذاك، ولا في أيّ وقت لاحق.

في بعض رسائل المونسنيور كوربولي بوسي الذي كلّفه البابا بإجراء هذه المفاوضات، يظهر مدى وضوح الشّعورِ بأهمية هذا القانون من النّاحية السياسية[2]. فبفضله، كانت المبادلات بين «الدُّول» الإيطاليّة[3] المختلفة ستتنمّى وتزداد تتطوّراً، ويمكن أن

---

(١) ماركو مينغيتي (١٨١٨-١٨٨٦): سياسيّ إيطالي.

(٢) جيوفاني كوربولي بوسي (١٨١٣-١٨٥٠): رجل دينٍ إيطاليّ عرف مسيرة مهنية باهرة. عقب انتخاب بيوس التاسع في يونيو ١٨٤٦، صعد بوسي إلى أعلى المناصب، إذ تولّى أمانة الشؤون الاستثنائية. وعندما اندلعت الأزمة نتيجة احتلال فيرارا من طرف النمسا، تقرّر أن يُعرَض على مختلف أقاليم إيطاليا قانونٌ جمركيّ يشير إلى إمكانية توحيد سياسيّ مرتقب. وقد اختار البابا كوربولي بوسي للتفاوض في هذا الملف. وقد لبّت هذه المهمة تطلّعاته العميقة: فوحدة اقتصادية كانت لتتيح تطورًا صناعيًّا، وتحفيزًا تشريعيًا موحّدًا، وتشجيعًا على تنمية الشعور الوطني. أما النمسا، فكان يُفترض بها في النهاية أن تتخلى عن سيادتها على لومبارديا وفينيتو. لكنّ هذه المهمة، كما أشار غرامشي، آلت إلى الفشل.

(٣) قبل توحيد إيطاليا في القرن التاسع عشر، كانت شبه الجزيرة الإيطالية مقسّمة إلى عددٍ من الكيانات السياسية المستقلّة، مثل مملكة الصقليّتين، ودوقية توسكانا، وجمهورية البندقية، والدولة البابوية، وغيرها. لم تكن هذه الكيانات ولايات تابعة لكيان موحّد، بل كانت «دولًا» قائمة بذاتها، لها حكوماتها وجيوشها وحدودها، وغالبًا ما تتباين في نظامها السياسي وارتباطاتها الخارجية.

تنشأ عن ذلك وحدة أعمق في أنماط الحياة، وفي الأفكار والمشاعر، مع نزوعٍ دائم نحو مزيد من التقارب: فالاتفاق الاقتصادي كان سيؤدّي حتمًا إلى وحدة سياسية، وبالتّالي تتحقّق الوحدة أو الفيدرالية الإيطاليّة دون حرب. وفضلاً عن ذلك رأى كوربولي أنّه ما إن تُقيم بقيةُ «الدّوَل» الإيطاليّة «حريّة كاملةً في التواصل من أجل الصناعات والمبادلات»، ستضطرُّ النمسا إلى فصل مملكة لومبارديا وفينيتو عن ألمانيا، بسبب عجزها عن إبقائها تحت سيطرتها وحدَها، وتُرغَم على وضعها تحت السيادة المستقلّة لأحد أمراء الأرشيدوقيّة. وبالتّالي، فإنّ الوحدة، على ما يرى كوربولي، «لا يفترض أن تُعزِّز فقط السيادات الإيطاليّة، استجابةً للرغبات المعقولة لدى الشعوب، بل أن تؤدّي، بفضل قوّة الجذب، إلى تحويل لومبارديا-فينيتو تدريجيًّا إلى مملكةٍ إيطاليةٍ، فتجعل من إيطاليا، من الألب إلى صقلية، إيطاليا خالصةً تماماً».

لم تكن هذه الفكرة جديدة ولا معزولة. ففي الوقت ذاته، كان ماسّيمو دازيليو يكتب نصّه «**مقترح برنامج للرأي الوطني الإيطاليّ**»[1] عرض فيه على أمراء إيطاليا بعض الإصلاحات التي من شأنها إرساء وحدة اقتصادية حميمة بين مختلف «الدّول»: من قبيل إنشاء شبكة سككية، واعتماد نظام موحَّد للنقد والأوزان والمقاييس، وكذلك حريّة تنقّل البضائع. كانت أمثال تلك المقترحات جزءًا من

(١) «**Proposta di un programma per l'opinione nazionale italiana**» نشره دازيليو سنة ١٨٤٧ في فلورنسا، لدى الناشر Le Monnier.

تاريخ يتجاوز قرناً من الزمن؛ وقد طُرحت مرارًا وتكرارًا وأُثير النِّقاش حولها: فقد سبق لعدد كبير من المؤلّفين أن درسوها (مع أنّ دازيليو بالكاد يذكرهم) في أبعادها الملموسة، وبدقّة كبيرة في الحجاج والخلاصات. وهذا يعني أنّ تلك المقترحات لم تكن إلّا ضرورةً من ضرورات الحياة الاجتماعية، وأنّها لا بدّ من أن تُنفَّذ عاجلًا أم آجلًا، إما بطريق السِّلم أو العنف.

إنّ إنشاء خطّ للسكك الحديدية، وتطوير شبكات الاتّصال، واعتماد نظام موحّد في الدول الإيطاليّة للنّقد والأوزان والمقاييس، وتطبيق الآلات وكلّ اكتشاف علمي جديد في الإنتاج الزراعي والصّناعي، وتأسيس حريّة تجارية متزايدة تُفضي إلى سنّ قانونٍ للجمارك، إلخ: كلّ هذه القضايا هي ما انفكّ يستقطب انتباه الباحثين، فأثيرَت نقاشاتٌ ما زالت تزداد حيويّةً، كلّما نضجت الظروف التي جعلت الحاجة إلى تلك الإصلاحات أكثر إلحاحًا.

كلّما ازدهرت الحياةُ الاقتصادية، زاد النقاشُ حيويّة، ونما بأفكارَ أكثر وضوحًا ومباشرة. والفرقُ بيّنٌ بينَ المقترحات الواضحة والعملية التي استلهم منها مؤلّفو إيطاليا الشمالية، والأفكار الغائمة والضبابية التي تطغى على كتابات الجنوبيّين. ففي الشمال، لأسباب جغرافية وطبيعية ومناخية وتاريخية، كان من الممكن أن نلاحظ تطورًا أكبر في الأنشطة وفي الإنتاج الاقتصاديّ: تطوراً شمل، في آنٍ، بدايات الزراعة المكثّفة، وانتشار الصناعة التي احتاجت إلى إيجاد أسواق لتصريف منتجاتها، فكان لابدّ من تيسير التبادلات

التجارية، وضمانِ سرعة الاتصالات وسهولتها، وتوحيد الأوزان والمقاييس، فضلاً عن إرساء حريّة الجمارك بين «الدّول»؛ لقد كانت تلك مسألةً ملحّة وعاجلة، ولم يكن الكتّاب والجمعيات يتناولونها انطلاقًا من مبادئ مجرّدة وبعيدة، بل كانوا يعالجونها بعيون شاخصةٍ نحو الضرورات العاجلة والملموسة. وساهمت تلك الضرورات نفسها، بفضل نجاعة متزايدة، في نشر الشعور الوطني، فكانت هي المنصّة الصلبة التي قامت عليها التجلّيات السياسية.

في سنة ١٨٣٦، كتب شخص يُدعى باتّاليا بشأن خطّ السكك الحديدية بين ميلانو والبندقية: «في اليوم الذي يصبح فيه السفر بين العواصم المختلفة في شبه الجزيرة مجرّدَ تسليةٍ لا تتجاوز بضع ساعات، رحلة ترفيهية، عندها يمكن القول إنّ تاريخ العلاقات بين مدن إيطاليا قد أصبح حقّاً من الماضي: **في ذلك اليوم يمكن القول إنّ إيطاليا وُلدت من جديد**». وفي كتابات شخص آخر يُدعى كيلياس، نجد عام ١٨٤٣ تأكيدًا بأنّ اتحادًا جمركيًّا بين «دول» الوَسَط الأربع (توسكانا، لوكا، بارما، مودينا) لا بد أن يجتذب بدوره بييمونتي والدّولة البابوية، ثم لاحقًا مملكةَ نابولي نفسها، ولومبارديا-فينيسيا: **وهكذا فإنّ الحلمَ الجميلَ بوحدة إيطاليا سينتهي بأن يصير واقعًا**. حتى مازّيني، الذي لم يكن يهتمّ إلّا بما ينتمي إلى أقصى المثالية، قد وعى إلى أيّ مدى كانت الفواصل الاقتصادية بين الكيانات المختلفة تُلحِق الضّررَ بوحدتها السياسية، وأنّ هذه الأخيرة لا يمكن أن تتحقّق إلا بإزالة الحواجز الجمركية.

إنّ هذه الإشكالات نفسها تبرز اليوم من جديد، ولكن على نطاق أشدّ اتساعًا. فمناصرو اتحاد الأمم يجدون أنفسهم أمامها مرّة أخرى، ولكن بتعقيد أشدّ، ناجمٍ عن اتساع الرقعة التي يُفترض أن يطالها هذا التجمّع الجديد. توحيد أنظمة الأوزان والمقاييس والنقود، وإنشاء عدد متزايد من خطوط السّكك الحديد الدولية، واعتماد اتفاقيات تُسهّل التبادلات الاقتصادية على اختلاف أنواعها، وفي المقام الأوّل، إرساء حريّة أكبر في التبادلات التجارية، وصولًا إلى إزالة كلّ الحواجز الجمركية.

في الختام يطرح موندولفو السؤال: هل هذه هي الطريق التي نسلكها الآن؟ إنّه سؤال محرج ومؤلم في آنٍ، لأنّ إيطاليا تمثّل اليومَ، في صلب الحركة الاقتصادية والسياسية المؤدية إلى قيام اتحاد الأمم العالمي، ما كانت تمثّله أشدُّ أراضيها بؤسًا ومدعاةً للخجل، في الحركة التي سبقت سنة ١٨٤٨، نحو اتحاد الأمم الإيطاليّة. يدافع السيناتور إيتّوري بونتي باكيًا عن ضرورة إقامةِ «الولايات المتحدة الأوروبية»، لكنّه، في الآن ذاته، لا يكفّ عن المطالبة بمزيد من القيود الجمركية[1]. وليس غيره من المؤلّفين بأوضحَ منه أفكاراً أو أشدَّ منه إحساساً بالواقع. سينتهي المطافُ هنا، كما انتهى في مسار الوحدة الإيطاليّة: وحدَها المبادرة السياسيّة للثوريّين ستطيحُ اليومَ، كما أطاحت بالأمس، بعجزِ الطبقات المسيطرة ومصالحِها الأنانية.

٦ نيسان/ أبريل ١٩١٨

---

(١) إتّوري جوفاني جوسّيبي بونتي (١٨٥٥-١٩١٩): سياسي إيطالي ذو نزعة ليبرالية.

VI

ضدَّ الحرب

محترفو الحرب
(نداء الحوريات)[1]

لماذا تندلع الحروب بهذه الطّريقة، وليس بتلك؟ ولماذا في لحظة ما دون غيرها؟ ولماذا تكون طبقةٌ بورجوازية بعينها مسؤولة عن حربٍ دون أخرى؟

ليس من السهل أبدًا الإجابة عن هذه الأسئلة. لكنّ ذلك لا يعني أنّ الأمر مستحيل أو أنّ محاولة وضع معايير للإجابة عنها -ولو على نحو تقريبي- أمر عديم الجدوى. بل إنّ اعتماد خطّ عملٍ دائم من هذا القبيل يتطلّب من حزب مناهض للحرب، من حيث المبدأ، أن يتبنى كلّ ما من شأنه أن يجعل نشوب حرب بعينها أمرًا مستحيلًا.

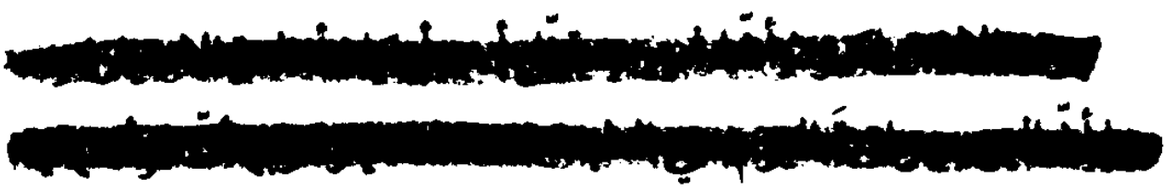

(١) يشير العنوان الفرعي إلى الحوريات الأسطوريّات اللواتي كنّ يُغوين البحّارة بأصواتهنّ الجميلة ليجذبوهم نحو الهلاك. فنداء الحوريات أو نشيدهنّ استعارة عن الإغراء الخادع الذي يخفي خطرًا أو كارثة.

هي الصيغة التي اتّخذها هذا النظامُ القائم على الامتيازات، فإنّ الاشتراكيين يرون أنّ الحرب اليومَ هي حتميةٌ برجوازية. لكن لا ينبغي أن نفهم الحتميّة هنا بمعناها الطبيعيّ أو الرياضيّ، وكأنّها قانون مطلق. فلو كان الأمر كذلك، لأصبحت الحربُ واقعًا يوميًّا، ولَما كفّت الدُّول الرأسمالية عن الاقتتال فيما بينها. بل يجب أن تُؤخَذ الحتميّةُ هنا بالمعنى المثاليّ للكلمة، أي بوصفها تأويلًا لضرورةٍ، وحُكمًا من أحكام البشر. فالنزاعات قائمةٌ منذ الأزل، لكنّها لا تكون دائمة الفعل. ولكي تصبح كذلك، يجب أن تكون ثمرة مبادرة بشرية، يجب أن يحكم أحدهم بأنّ لحظة الفعلِ قد حانت، وأنّ الفرصة سانحة لانتزاع امتياز جديد، أو أن يُقرّر -بالعكس- أنّه لا بد من منع امتيازٍ قائم من أن يُنتزع لصالح طرفٍ آخر؛ إذّاك تندلع الحرب.

وهنا بالضبط تظهر الأسئلة: لماذا تندلع الحروبُ؟ ولماذا في لحظة معيّنة دون غيرها؟ ولماذا تجد لها أنصارًا في أوساط معينة لا في سواها؟

هذه الأسئلة نفسها طرحها نورمان أنجيل حين نشر **الوهم الكبير**[1]. لقد تناول نورمان أنجل مسألة الحرب من وجهة نظر منطقية تمامًا وصارمة، فخلُص إلى الآتي: الحربُ ظاهرة فادحة إلى

(١) **رالف نورمان أنجيل-لين** (١٨٧٢-١٩٦٧): كاتب ومفكر سياسي إنجليزي، غزير التّأليف. نشر سنة ١٩١٠ كتابه **الوهم الكبير**، الذي دافع فيه عن قناعة مفادها أن اندلاع حرب بين القوى الكبرى سيكون مجرّد «وهم كبير». وفي نسخة منقّحة نُشرت سنة ١٩٣٣، سعى إلى إثبات أن إعلان الحرب ذاته هو فعل أحمق اقتصاديًا لا طائل من ورائه. وقد نال جائزة نوبل للسلام في السنة نفسها.

حدٍّ يستوجب افتراض أنّ الرِّجال الذين يعلنونها لا بدّ أن تكون لديهم أسباب جسيمة لفعل ذلك، وأنّهم مقتنعون بتلك الأسباب عن صدق. فالحروب الحديثة تنشأ عن الحاجة إلى تنظيمات اقتصادية تكون أكثر ملاءمة لبعض الرأسماليّات القوميّةِ: فالرّجال الذين يشكّلون مكوّنات تلك الرأسماليات يقعون فريسة لوهمٍ كبير: يعتقدون أنّ الحروب مفيدة اقتصاديًا، وأنّها تساهم في رفع الإنتاجية وتنشيط التبادلات. أما أنا، فأستطيع أن أبرهن أنّه إذا ما نظرنا إلى الشكل الحالي للإنتاج والتبادل، فإنّ الحرب لا يمكن أن تثري أحدًا، وأنها لا تنفع أحدًا، وأنّ في الحرب الحديثة ما من إمكانٍ ليكون ثمّة منتصرون ولا مهزومون، أي أنّ الجميع سيشهدون تراجعًا في مستواهم الاقتصادي، لأنّ الأضرار التي تلحق بأحد الأطراف ستتحوّل حتمًا إلى أضرارٍ تلحق بالأطراف الأخرى. إنّ من شأنِ انكشاف هذه الحقيقة، والبرهنة الرياضية عليها، أن يقضيَ على الحرب.

عليكم بنشرها والتّرويج لها: فحين يقتنع بها الجميعُ، ستزول الحرب؛ وكلّما أسرعَت هذه الحقيقةُ في كسب أغلب النّاس، سارعت الحربُ إلى الاختفاء.

ثمّة من اعترض على نورمان أنجل قائلًا: أتظنّ حقًا أنّ البشر يشنّون الحروب لأسباب جسيمة كهذه؟ إنّ أمثال هذه الأسباب قد تكون صالحة لاستمرار حربٍ بدأت بالفعل، لتمديدها، لإضفاء غايةٍ ما عليها. غير أنّ الحروب تندلع لأسباب شتّى، ومن غير

المجدي البحث عن أصول باطنة أو علل ملازمة، كما يستحيل تحديد الأسباب الأولى، لأنها تكون جديدةً في كلّ مرّة، ومختلفةً في كل مرّة. الحقيقة هي أنّنا لا نعرف لماذا تندلع الحروب، ولهذا السبب بالذات يجب اعتبارها جزءًا من تراث المجتمع البشري، وأنّ الرجال المجبَرين على خوضها ينبغي لهم أن يسعوا إلى خوضها بأفضلِ طريقةٍ ممكنة، أي بأشرف الطُّرق وأكثرها نفعًا للأمّة التي ينتمون إليها.

غير أنّ مثل هذا الاعتراض لا يصدر عن مناهضٍ للحرب. وبالنّسبة إلى الاشتراكيين، لا يُطرح المشكلُ بهذه الصّورة أصلًا.

[redacted] يمكن اعتبارها، منطقيًّا، كافيةً لما سيقع من أحداث؛ وصحيحٌ أيضًا أنّ هذه الأسباب، هذه المحفّزات، كثيرةٌ ومعقّدة إلى درجة تجعل من العسير إدراجها في مخطّطٍ واضحٍ وتعليلي. ويزداد ذلك كلّه صحّةً، ما دمنا نفتقد إلى أناسٍ يهتمّون حقًّا بما يدور حولهم، ويقلقون من تراكم هذه العقد إلى درجةٍ يصير مستعصاً حلُّها، اللّهم إلّا بضربةِ سيف، ويُخرِجُون إلى الفعلِ الحربَ التي كانت كامنةً في المجتمع الرّاهن. [redacted]

[redacted] بكلّ تعقيداتها؛ نفتقر إلى أناسٍ يقترحون تحويلها تحويلًا ملموسًا، ويقترحون -ريثما يتسنّى استبدالها- أن يُعتقلَ هذا الشرّ في شبكةٍ من الرّقابة المحكمة تمنعه من أن يصير شرًّا فعليًّا نشطًا بدل أن يبقى في حالته الكامنة.

لأنّ ثمّة من يعملون دائمًا، عملاً حثيثاً، على إشعال الحرب. ولأنّ ثمّة من لا ينفكُّ يزند البارودَ المشتعل، ويتحرّك وسط النّاس موقظاً الشكوكَ، ناشراً الذّعر. ولأنّ ثمّة محترفي حربٍ. ولأنّ ثمّة من يُفيد من الحرب، حتى وإن لم تجنِ منها الجماعة، أو الجهود الجماعية للأمم، غير الموت والخراب.

لطالما وُجد ناشرو الذّعر. ولطالما وُجد محترفو الحرب. حتى في العصور القديمة. إنّنا نجد لهم أثرًا في خرافات إيسوب.

يروي فيدروس (Phèdre) أن ثلاث أُسَرٍ اتّخذت من سنديانةٍ[1] موئلًا؛ فعلى قمّة الشجرة بَنَت أمُّ قشعم (أنثى النّسر) عشَّها ورقدت على بيضها. وحفرت أنثى رثٍّ (خنزيرٍ بريٍّ) عرينَها عند الجذور. أمّا الهِرّةُ، فوجدت لنفسها ملجأً في جذع الشجرة، تخزِنُ فيه كلّ ما تنهبُه وتسرقه. وكانت أمُّ قشعم والخنزيرةُ تعيشان في سلام، كلّ في حالِها، تربّي صغارها ولا تتدخّل في شؤون جارتها. ثمّ إنّ الهرّةَ صعدت إلى العشّ ذات يومٍ وجعلت توَسوِسُ لأمّ قشعم بأحاديثَ غامضة عن نوايا الخنزيرةِ الشرّيرة: فزعمت أنّ الشجرة على وشك الانهيار، لأن الخنزيرة تحفر عند الجذور كي تنهار وتتمكّن من التهام صغار النّسر. فما الذي كان بوسع أمّ قشعم أن تفعل لحماية فراخها؟ لا بدّ من المبادرة إلى الهجوم، إجبارِ العدوِّ الماكر على إخلاء المكان، التهامِ صغاره، وضعِ حدّ لتلك المؤامرة الخبيثة التي تُحاكُ تحت الأرض.

---

(١) انظر فيدروس، الأمثولات، II، ٤. وقد صاغها لافونتين كذلك في أمثولاته «النّسر والخنزيرة والقطة»، الأمثولات، ٦، III.

وبعد أن بثّت الرُّعبَ في قلب الطّائر، قصدت الهرّةُ إلى أنثى الرثّ. وهل رأيتهم حيواناً يفوق في الغباء آكل البلّوط ذاكَ؟ لقد بنَت الطّائرُ عشّها في قمة هذه السنديانة تحديدًا لأنّها كانت تترصّد الفرصة المناسبة لتنقضّ على صغار الخنزيرة فتختَطِفَهم واحدًا واحداً. والخنزيرةُ في أثناء ذلك غافلةً لم تعمد إلى أيِّ إجراءٍ تدفع به عدوانَ العدوّ؟ والحالُ أنّ الأمر لم يكن معقّدًا: فما عليها إلّا أن تحفرَ عند الجذور، فتُسقط الشجرة، فتهدم العشَّ قبل أن ينقضّ عليها الكاسرُ.

فكان أن خافت الخنزيرةُ، ولم تجرؤ على الخروج من وكرها مخافةَ أن تتخطّف أمّ قشعم صغارَها، حتّى ماتت جوعًا، وكذلك ماتت الطّائرُ لأنّها لزِمت عشّها مخافة أن تهدمَه الخنزيرةُ. أمّا الهرّةُ، فأكلت صغارَ هذه وفراخَ تِلك؛ فكفاها لحمُهم أياماً لم تخرج فيها إلى الغابة طلباً لطريدة. إنّ مثيري الرّعبِ إذن جنسٌ قديمٌ، وليسوا اختراعًا حديثًا.

في فرنسا، انفجرت مؤخرًا فضيحة **بولو باشا**[1]. فقد اشترى بولو خمسة ملايين ونصف من أسهم جريدة **Le Journal**. وكانت

---

(١) بول ماري بولو، المعروف باسم بولو باشا أو بولو-باشا (١٨٦٧-١٩١٨) : مغامر فرنسي تورّط في عديد من قضايا الاحتيال. بين نهاية سنوات ١٨٨٠ و١٩٠٤، أقام في الأرجنتين حيث سُجن. وبعد عودته إلى باريس، شرع في مشاريع تجارية ومصرفية وخيرية، كلّها مشبوهة. ارتبط بعلاقات وثيقة مع سياسيين نافذين، من أبرزهم الوزير جوزيف كايو. وفي سنة ١٩١٤، أصبح المستشار المالي للخديوي عباس حلمي الثاني في مصر. وبعد عزل الخديوي، لجأ إلى سويسرا، ومنها اتّصل ببنوك أجنبية هدفها التأثير في الرأي العام الفرنسي. وبأمر من بريان وكليمنصو، اعتُقل بولو في فرزن في سبتمبر ١٩١٧، ومَثُل أمام المحكمة العسكرية في باريس سنة ١٩١٨، وصدر في حقّه حكم بالإعدام، وأُعدم في أبريل من السنة ذاتها في قلعة فنسين.

هذه الأخيرة قد تخصّصت في حملةٍ دعائية لصالح الأسلحة والذخائر: مزيد من المصانع، مزيد من الآلات لإنتاج المزيد من الأسلحة والمزيد من الذخائر دومًا. وكان بولو من المساهمين في جريدة **Le Rappel**. وهذه الجريدة هي لسان حال اللّجنة التي تدافع عن ضرورةِ ضمّ فرنسا إلى الأراضي الألمانية الواقعة على الضّفة الشّمالِ من نهر الرّاين. وقد نشرت الصّحفُ أنّ بولو كان على صلة في أمريكا بالكابتن **تاوشِر**، رئيس وكالة الإشهار التابعة لدار السلاح **كروب**. لكن من الذي ما يزال يتذكّر مقالات الصحافة الإنجليزية؟ من يتذكّر بعدُ كتيّبَ النقابيِّ الفرنسيِّ **فرانسيس دُليزي**، المنشور قبل سنة ١٩١٤، والذي تضمّن توثيقًا للصفقات التي كانت تربط دور الأسلحة التالية: **كروب، كْرُوزو، بوتيلوف، آرمسترونغ**، والتي كانت تنتج الأسلحة في كل من ألمانيا وفرنسا وروسيا وإنجلترا[1]؟ من ذا الذي يتذكّر اليومَ الأدلّة التي أثبتت المناورات التي كان يديرها مثيرو الذّعر المأجورون من قِبَل هذه الدُّور نفسها؟ من يتذكّر بعدُ أنّه كان يمكن للمرء أن يجد في تلك

---

(١) **فرانسيس دُليزي** (١٨٧٣-١٩٤٧): كاتب، اقتصادي وصحافي مؤثّر في الفترة الفاصلة بين الحربين، وكان قريبًا من الاشتراكيين. شارك في إصدار العدد الأول من مجلة **الحرب الاجتماعية** (أسّسها غُوستاف هيرفي في ١٨ ديسمبر ١٩٠٦). تولّى الأمانة العامة لاتحاد عموم أوروبا (Union paneuropéenne) بين ١٩٢٧ و١٩٣٢، وكان عضوًا في اللجنة المركزية لرابطة حقوق الإنسان (Ligue des droits de l'homme) سنة ١٩٣٥، كما انخرط في **لجنة اليقظة للمثقفين المناهضين للفاشية** حتى سنة ١٩٣٩. لكن موقفه خلال الحرب العالمية الثانية جرّ عليه محاكمات بتهمة التعاون مع المحتلّ.

الحقبة، في فرنسا وألمانيا وروسيا وإنجلترا، صحفًا متواطئةً تنشر أخبارًا مثيرة عن مشاريع حربية، وتسليح جديد، وتحرّكات سريّة كانت تُنسب إلى الدّول العَدُوّ؟ وفي الصّحف الإنجليزية، بين عامي ١٩١٣ و١٩١٤، تكرّرت الأخبار عن تحليق مناطيد غامضة فوق مدن الشرق. وفي كلّ مرّة، كانت هذه الأخبار تُتْبَع بحملاتٍ صحافية هوجاء تشنّها صحف أخرى، هدفها دفع الحكومة إلى اتخاذ مزيد من الإجراءات الوقائية. وفي كلّ مرّة، كان من الممكن إثبات أنّ الأخبار المتعلقة بالمناطيد التي تمّ رصدها كانت زائفة تمامًا. لكن من الذي يصدّق الأخبار النّافية؟ في ألمانيا، كانت تُنشر نفس الأخبار ضد الإنجليز. ففي ٤ أغسطس ١٩١٤، كان الألمان على قناعة بأنّ مناطيد فرنسية قد قَصفت نورنبرغ، وبالتّالي كان بوسع الحكومة الألمانية أن تبدأ الحرب دون أن تواجه ممانعة شعبيةً تذكر.

إنّ مثيري الذّعر ما يزالوا يواصلون عملهم. فـ«بولو باشا»، ممّول صحيفتي **الجورنال ورابيل**، قد أُلقي عليه القبض اليوم. وقبل ذلك، كان **فيتوريو كوتين**[1]، الكاتب الشعبوي صاحب رواية **السيجارة** (**Sigaretta**) مَن يتصدّر المشهد: وهو نفسه من اتّهم الرفيق **تودسْكيني** بالخيانة، وكان من أبرز المناصرين لحقوق إيطاليا في دالماسيا كلّها، ومن دعاة الحرب ضدّ النمسا، ساعيًا

(١) فيتوريو كوتين (١٨٧٠-١٩٢٤): شاعر وروائي وناقد وصحفيّ، كان من أبرز وجوه المشهد الأدبي الإيطاليّ.

إلى تحويل الأدرياتيك إلى بحرٍ إيطاليٍّ خالصٍ، وطردِ الكرواتيّين واليوغوسلاف إلى خارج الأراضي التي خصّهم بها الله وطنًا لهم. إنّ القوات الدّولية التي لها كلّ المصلحة في إطالة أمد حالة الحرب الكامنة، ما تزال تواصل الدعاية القديمة. تلك القوى، كما هو متوقّع، لا تدعم إلا أولئك الذين يبشّرون بالكراهية بين الشعوب، أولئك الذين يبتكرون كلّ صنف جديد من الحروب في المستقبل.

لذا، لا يكفي أن نكرَه الحربَ عمومًا. ينبغي مباشرَةُ عملٍ رقابيٍّ دؤوب، بُغيةَ كشف القوى المنحرفة التي تسعى إلى إشعال الحروب، إلى زرع بذور الحروب المقبلة.

أمام الاشتراكيِّين مهمّتان اثنتان: تقوية الحركة التي من شأنها أن تَحُلّ محلّ البرجوازية، وذلك لجعل أيِّ شكل من أشكال الحرب مستحيلًا. وفي الوقت نفسه، مراقبةُ تلك الأوساط البرجوازية مراقبةً صارمة، تلك الأوساط التي تصنع «اللحظات الحاسمة»، وتقرّر في بعض الأحيان أنّ الحربَ ضروريةٌ.

أما المهمّة الثانية، فهي تشمل الأولى: إذ لا يكفي أن نكون معادين للحرب بوجه عامّ، كما لا فائدة من أن يُعلن المرء نفسه اشتراكيًا بوجه عامّ، بل ينبغي أن يعمل على منع حروبٍ بعينِها، عبر كشف كلِّ الحيل، وفضح حبكات مثيري الذعر، أولئك الموظَّفين في صناعة الحرب الذين يطالبون بالحماية الجمركية لصالح الحرب الاقتصادية. فبما أنّه من الصحيح أنّ اندلاع الحرب في لحظة معيّنة

قد يكون أمرًا لا مفرّ منه، فيجب أن نسعى جاهدين لتفادي وقوع تلك اللحظة.

ما أكثر الحوريات اللواتي يُنشدن أناشيد الهلاك! يجب تثقيف البروليتاريا، نعم، ولكن ينبغي أيضًا إسكات الحوريات. إنّنا نفتقر إلى أمثال أوليس[1]، أناسٍ استعدّوا مسبقًا، فربطوا أنفسهم بسارية السفينة، وسدُّوا آذانَ بحّارتهم بالشمع، ليتمكّنوا من عبور صوت الحوريات دون السقوط في الهاوية. لكننا نفتقر كذلك إلى من يواجه الحورياتِ، أي إلى رجالٍ شرفاء يَهبُّون لإسكاتهنّ[2]. ما دامت البروليتاريا لم تستوعب الشعبَ برمّته، ولا تحصّنت ضدّه، فلتسعَ على الأقلّ إلى أن تبسط شبكتَها الرّقابيّةَ على المجتمع البرجوازي برمّته، أن تسجنَه، أن تمنعَ من يهذر كلّ هذه الأرواح والثروات.

١٠ أكتوبر/ تشرين الأوّل ١٩١٧

---

(١) في **الأوديسة** لهوميروس، يروي الشاعر كيف نجا أوليس (أو أوديسيوس) من غواية الحوريات اللواتي كنّ يُغنين بأصوات فاتنة تسلب عقول البحارة وتجذبهم إلى الهلاك. ولتفادي هذه النهاية، أمر أوليسُ رفاقه بأن يسدّوا آذانهم بالشمع حتى لا يسمعوا الغناء، بينما طلب أن يُقيّد إلى صاري السفينة دون أن يُغلق أذنيه، كي يسمع الأغنية دون أن ينجذب إلى مصدرها. بهذه الحيلة، تمكّن من عبور منطقة الخطر دون أن يهلك، ليغدو رمزًا للإنسان الذي يتوق إلى المعرفة دون أن يستسلم لغوايتها.

(٢) يمضي غرامشي بعيداً في استثمار حكاية هومريوس: فهو لا يرثي فقط غياب أوليس الذي يصمّ أذنيه، بل أيضًا غياب أولئك الذين يتولّون إسكات الحوريات أنفسهن، أي إسكات أبواق الدعاية والحرب والكراهية. فمَن يمتلك «نية طيبة» لا يكفي أن يحمي نفسه من النّداء، بل عليه أن يمنع صداه من أن ينتشر. وهنا يُستعار عالم الأسطورة ليُعبّر عن الحاجة إلى وعي نقديّ مضادّ، لا يكتفي بالتحصّن، بل يبادر إلى خنق الإغواء من منبعه.

الكذب والاستسلام
(الحرب والمستقبل)

يذكر ليون ڤيرت في مقال بجريدة الشّعب Journal du peuple أنّ رينان كان يتساءل هل بمقدور كتّاب سيرته في القرون المقبلة أن يميّزوا بين الصادق والزائف في طَيْس الأساطير التي راكمها رجالُ الدّين حولَه، بعد أن نشرَ كتابه حياة يسوع (Vie de Jésus)، وكان يقول: «إن كان مصيرُ النّقد بعدي أن يصبح أكثر غباءً، بدلاً من أن يتقدّم، فسأكون قد هلكتُ؛ لكن إن كانت الإنسانيّة محكومة بالبلاهة، فلا يعنيني تقييمُها وحكمُها في شيء»[1].

يعيد ليون ڤيرت اليوم طرح السؤال نفسِه الذي طرحَه رينان أمس، وبالعبارات نفسها تقريبًا؛ لكن هذه المرّة ليس بخصوص سيرة المرء وأسطورته، بل فيما يتعلّق بتاريخ الحرب وأسطورتِها.

---

(١) ليون ڤيرت (١٨٧٨-١٩٥٥): روائيّ ومُدوّن ومُعلّق فنيّ وصحفيّ فرنسي. التحق بالجبهة عام ١٩١٤، وقاتل فيها خمسة عشر شهرًا قبل أن يُصاب بجروح. هزّته بشاعة الحرب، فصار سلميًّا متشبّعًا بالقناعة. وقد أثارت مذكّراته الحربية الجندي كلافيل (Clavel Soldat)، التي نُشرت سنة ١٩١٩، ضجّة كبيرة في الأوساط العامة.

فما مصير بصيرة النقد؟ أو، ببساطة، بصيرةِ البَشر؟ هل قُدِّرَ على الإنسانيّة أن تُمعن في عبادة البلاهة؟

لقد شهدنا حقبةً اجتاحت فيها البطاقاتُ البريديّةُ كلّ مكان؛ بطاقاتٌ تُصوّر خنازيرَ بخوذاتٍ مدبّبة، وجنودًا ألمانًا برؤوس حمير، ونساءً ألمانِيّات شقراوات برؤوس إوَزّ. رموز بروباغاندا شائكة أُنجِزت بكلِّ ما في الطباعة الحجريّة الملوّنة من قُبحٍ وخسّة. وفي مقابل تلك الرّموز «الدّعائية»، تلك الصّور الوطنية، انتشرت بطاقاتٌ بريديّة عاطفيّة، يَظهر فيها عشّاقٌ متماثلُون، يتعانقون تحت ضوء القمر، وقد استبدّ بهم حنينٌ إلى الزمن المفقود.

تُشابِه مختلفُ تلك الصّور، مع شيء من التّفاوت، أفكارَ ومشاعرَ القوميّة والقوميّين؛ ذاك الصّنف من البشر الذي يصدُق عليه وصف «نرجسِ[1] العصرِ الجديد»، أولئك الذين لا يملكون حياةً خاصّة، ولا يفقهون شيئًا عن الأوطان، فيتوهّمون الإعجابَ بجماعةٍ بشريّةٍ ينتمون إليها، ويخلطون بين تلك الجماعة والأمّة نفسها.

وليس من العسير أن ندرك مدى خدمة هذه المشاعر للخيالاتِ الدبلوماسيّة والوقائع الماليّة، مثلما كانت تخدم العاداتِ السُّلاليّةَ القديمة التي صارت تتخفّى اليومَ في مفرداتٍ «ديمقراطيّة» و«ثوريّة». إنّ هذه المشاعر الملتبسة تُفسِّر كيف هُيِّجَت قطعانٌ من

(١) إشارة إلى أسطورة نرجس، الذي كان معجباً بنفسه يقضي يومه في تأمّل صورة وجهه في البحيرة، وانتهى به المطاف إلى الغرق فيها.

البشر ضدّ قطعانٍ أخرى. لكنها لا تُفسّر كيف اتّحدَ، في تلك المجازر، أولئك البشر الذين بدَوا، للوهلة الأولى، على طرفَي نقيض. فلقد شهدنا [اجتماع] ثوّارٍ توهّموا أنهم انطلقوا لإخمادِ الحرب، ورجالٍ من العهد البائد يؤمنون بقانونٍ أخلاقيّ يحكم الحرب. وبوسع مؤرّخ الغدِ، إن تحلّى بقدرٍ كافٍ من الحصافة والفطنة، أن يستعيد مشاعرَ القطيع، كما مشاعر أولئك الأفراد.

لكن، هل بوسعه إعادة تشييد المرحلة الراهنة من الحرب؟ أيُّ وثائق ستقوده إلى الحقيقة؟ هل سيتمتع بقدرٍ كافٍ من الحسّ النقديّ والمعرفة، يتيح له التمييز بين الصدق والبهتان؟ أن تكون الحرب قد توارت في بلد، وأن يتسلّح بلدٌ آخر ليُخمدَها، فذاك من ضروب الوهْم؛ لكنَّه وهْمٌ يُعين، في لحظةٍ ما، على فهم زخمِ البشر واندفاعِهم، وعلى إدراك ما يجمع الأفرادَ. أما بالنّسبة إلى القوميين (لا أعني منظّري القوميّة، بل الجموع المنخرطة في قوميّةٍ ما، بعفويّة أو عن رويّة)، فالحرب ليست بحاجةٍ إلى تفسيرٍ خارج ذاتها. إنها التّعبير الطبيعيّ عن مجمل الخرافات، وعن كلّ التجريدات المؤنسَنَة، التي صيغَ منها الفكرُ القوميّ. وحريٌّ أن نضيف أنّ الأشهر الأولى من هذا الطوفان أبرزَت أنّ العقيدة القوميّة قد صمّمت تماماً على مقاسِ الحرب. لقد أُوهِم النّاسُ بأنها حربٌ ضارية، ولكن خاطفة. فاستسلموا دون تفكير. ويجب الاعتراف بأنّ هذا الاستسلام لم يكن هيّنًا على كثير منهم. ولم تكن مغالطةُ الوطنيّة الثوريّة بأقلَّ قوّةً من مغالطات الوطنيّة الأرثوذكسيّة. فمن رأى أنّ الحرب حتميةٌ

للخلاص العام؛ ومن رأى الخلاص العامّ ومتطلّبات حالة الحرب لا ينفصلان عن بلوغ الحريّة وتحقيق سائر آمال الشعوب.

لكن هي ذي الحربُ قد استقرّت، وغدت تستهلك وتُفني الخرافات التي تقود إلى الحروب وما تزالُ تُغذّيها. لم يكن المحاربونَ، أنصار السلام، في عام ١٩١٤ يتوقّعون شيئًا من هذا. فقد خرج بعضهم، كما أبطال الأساطير، ليقضوا على التّنين، على العدار[١]، على الوحش. ولم يكن يخطر ببالهم أن تضحياتهم ستُغذّي الحرب كما تُغذّيها الطاعةُ الصافية العمياء، وأنَّ الحرب، في يومٍ ما، ستتواصل وقد تطهّرت من كلِّ شعورٍ، ومن كلِّ شغف، ومن كلّ كراهية بشريّةٍ، واختُزلت إلى فعلٍ آليٍّ صرف.

أيّ ناقدٍ بصير في المستقبل سينجح في التقاط هذا الطّابع الآليَّ للحرب؟ أين سيجد له أثرًا أو شهادةً؟

ولا يدَّعيَنَّ أحدٌ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون إرهاقًا طبيعيًّا. بل إنّ البشر ينتهي بهم المطاف إلى إدراك عبث الموت. بينما يواصل الخطباء عادتهم في التشدّق، بإسهاب لا يُطاق، بمبادئ القوميّات أو بمبدأ الأمّة، يبدو أنّ البشر باتوا يشهدون أخيرًا تلاشي خرافاتهم، ويرون الحرب ماثلةً أمامهم على قاعدتِها الحقيقيّة الواقعيّة.

---

(١) العُدار أو الهيدرا (Hydra) وحش أسطوري عديدُ الرّؤوس في الميثولوجيا الإغريقية، كانت تنبت له رؤوس جديدة كلما قُطع أحدها، ما جعله رمزًا للشرّ المتجدّد أو العدوّ المتعدّد الوجوه الذي يصعب القضاء عليه. اشتهر هرقل بمواجهته ضمن إحدى مهامه الأسطورية.

لقد اغتالوا جوريس، وزجّوا ليبكنخت في السّجن. وحرصوا على أن يُبقوا أسمالَ الكذب في مأمنٍ من التمزيق. لكنّ الأسمالَ تسقط، سملاً بعد سملٍ. وعندئذ تخطر ببال المرء تلك البيوت في الملاهي، حيث يستطيع عبرَ خدعةِ مرايا أن يرى هيكلَ شخصٍ من خلال ثيابه.

٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧

ينبغي أن نُغيّر أنفسنا
(قراءاتٌ)

على طاولتي هنا، بضع منشورات وصلتني للتوّ. وأرى الإعلانات تبشِّرُ بمنشوراتٍ غيرَها. تلقّيت منشورَين أو ثلاثة تُبشّر بصدور دوريّات جديدة ستُعنى بمناقشة المشكلات المتعلّقة بالفعل المعقّد الذي ينبغي على البروليتاريا أن تضطلع به كي تبلغ أهدافها الآنيّة وغاياتها القصوى.

أتحدّث مع رفاق، مع أصدقاء، مع مقرّبين. وأشعر في كلّ واحدٍ منهم بشيءٍ مختلف. لقد برزت احتياجات جديدة، وغدت تُحفّز التفكيرَ. صرنا ننظر إلى الواقع الذي يحيط بنا من زوايا جديدة. كلّ هذه الزوايا تشي بالقلق، وفي كلٍّ منها يعتمل ضجيجٌ من النيّات الملتبسة، النيّات التي ما تزال غائمة، وتُصاغ على نحوٍ عامّ، دون أن تتّخذ لنفسها شكلًا متماسكًا.

ولِمَ نُخفي الأمر؟ أنا نفسي أشارك في هذا القلق، في هذه الحيرة. وأحاول كبح تلك المحفّزاتِ، ألّا أترك نفسي عرضةً لموجات الانطباعات الجديدة التي ما تنفكُّ تطرق بابَ وعيي مطالِبةً بأن تُستقبل وتُفحَص.

إنّ ثلاثَ سنوات من الحرب كانت كفيلة بإحداث تغيرات كثيرةً في العالم. وربّما يكون أعظم تلك التغيّرات كلّها هو التالي: ثلاث سنوات من الحرب جعلت العالم محسوسًا. نحن اليوم **نشعر** بالعالم، بعدما كنّا سابقًا نكتفي **بالتفكير** فيه. كنّا نشعر بعالمنا الضيّق، نشارك في آلامه، في آماله، في إرادته، في مصالحه؛ ذاك العالم الصغير الذي كنّا نغوص فيه مباشرةً. ولم نكُ قادرين على وصل أنفسنا ببقيّة أفراد الجماعة إلا ببذل جهدٍ عقليّ، وتجريدٍ ذهنيٍّ هائل. أمّا الآن، فقد غدت الرّابطةُ أشدّ حميميّة. صِرنا نرى بوضوح ما كان بالأمس غامضًا وضبابيّاً. صِرنا نرى بشرًا، جموعًا من البشر، بينما لم نكن نرى من قبلُ سوى دولٍ أو أفرادٍ نمطيّين يمثّلونها.

لقد تحقّقت عالميّة الفكر، أو على الأقل باتت تميل إلى التحقّق. ثمة شيءٌ ينهار حتمًا في داخلنا، لكنّه ينهار أيضًا في الآخرين. وقد تَشكّل مزاجٌ أخلاقيّ جديد: كلّ شيء صار متحرّكًا، متقلّبًا، سيّالًا. لكنّ ضرورات اللحظة طاغيةٌ، ولهذا فإنّ هذا التدفّق يميل إلى أن يركدَ، وما كان مغامرةً روحيّةً عابرة، يريد أن يصيرَ نهائيًا. إنّ الدّعوةَ إلى التّفكير تَطرَح اليومَ نفسَها كفكرٍ تامٍّ وكامل. ما كان مجرّد رغبةٍ غامضة، صار يُطرَح اليوم باعتباره إرادة واضحة وملموسة. ومن هنا منشأُ الفوضى، وبلبلةِ الألسن، واختلاط أشدِّ المقترحات جنونًا بأسطعِ الحقائق.

هكذا ندفع اليوم ثمن رعونتنا وسطحيّتنا بالأمس. فقد فقدنا عادة التفكير، واكتفينا بحياة يوميّة رتيبة، وها نحن نجد أنفسنا

الآن عزّلًا في مهبِّ العاصفة. لقد جعلنا من الحياة شيئًا آليًّا، فصرنا نحن أنفسنا آليّين. رضينا بالقليل: صار اكتشاف حقيقةٍ صغيرة يملؤنا بهجةً كما لو أنّنا ظفرنا بالحقيقة الكاملة. تجنّبنا كلّ ما يستدعي الجهدَ؛ بدا لنا ألّا جدوى في أن نصوغ فرضيّاتٍ بعيدة، أو أن نسعى إلى حلّها، ولو مؤقّتًا. كنّا مجاذيبَ، مغيّبينَ. كنّا نفرط في تقدير وزن الراهن، والوقائع... أو نهمل وزنَها تماماً. عانينا من نزوع إلى التجريد: لأنّنا كنّا نجعل من واقعةٍ واحدة، من شذرةٍ من حياتنا، واقعًا كاملًا، وكأنّنا ننوِّمُ أنفسنا مغناطيسياً. أو عانينا من التجريد لأنّنا كنّا نَفتقد بالمطلقِ إلى الحسّ التّاريخي، فلم نرغب في أن نرى كيف يغرس المستقبلُ جذوره في الحاضر وفي الماضي، وأنّ البشرَ، وأحكامَ البشرِ، قادرةٌ على أن تقوم بقفزات، بل يجب أن تفعل ذلك، لكنّ المادّة، مادّة العالم، لا تقفز. المادّة لا تقفز، ولا الواقع الاقتصاديّ أو الواقع الأخلاقيّ يقفز.

لذا صارت اليوم الحاجةُ إلى تنظيمِ ذواتنا من الداخل أشدّ إلحاحًا. لقد اقترب العالم منّا، آليًّا، في شكل قوىً ودوافع لا قِبلَ لنا بها. كثيرون، لا شعورياً، باتوا يرون فينا الخلاص. كنّا نحن وحدنا نعدُّ لِمستقبلٍ مختلف، أفضل من الحاضر. كل أولئك الذين خابت آمالهم، وكلّ هذه الكتلة الهائلة من البشر، التي عرّضتها ثلاث سنوات من الحرب لضوء التّاريخ ودفعتها إلى الاهتمام بالحياة الجماعية؛ جميعهم يأملون فينا الخلاص، يَرقُبون النظام الجديد. اندلعت أزمةٌ روحيّةٌ هائلة. ظهرت احتياجاتٌ غير مسبوقة لدى

أولئك الذين، حتى الأمس، لم يعرفوا حاجةً غير حاجتهم إلى العيش والغذاء. وحدث هذا، بالضبط، في اللحظة التّاريخية التي (كما كان لا بدّ لها أن تقع) شهدَت أكبرَ تدميرٍ للثروات عرفَه التّاريخ على الإطلاق- تلك الثروات ذاتها التي وحدَها تستطيع إشباع الجزء الأكبر من هذه الحاجات.

إنّ المنشورات الجديدة، المجلّات الجديدة، لا تمنحُني، لا تفلح في منحي، أدنى ما أصبو إليه من رضًا. ولا شيء في هذا يدعو إلى الحزن. فالرّضا الذي أنشدُه، رضاً جوانّيٌّ، ينبغي أن ألتمسَه في داخلي، في أعماق ذاتي؛ هناك فقط يمكن أن تهدأ التوتّرات، أن تجد كلّ الاضطرابات التي تُثيرها الاستجابات الخارجيّةُ توازنَها. أمّا هذه الكتبُ، فليست بالنّسبة إليّ سوى دعاوى، ما هي إلّا مناسباتٌ للتفكير، للتوغّل في ذاتي، كيما أستعيدَ أسبابَ وجودي العميقةَ، وأسبابَ مشاركتي في حياة العالم. إنّ هذه القراءات تُقنعني مرّةً أخرى بأنّ عملًا كبيرًا ما يزال ينتظرنا نحن الاشتراكيّين: عملًا من التعمّق الذاتي، عملًا من تكثيف الحياة الأخلاقيّة.

يتوعّدُوننا بحملةٍ مرتقبة لمراجعة الشعارات، والبرامج التي اعتُمِدت حتى اليوم. لكنّ هذا النوع من «المراجعات» ليس ما نحتاج إليه. ذاك أنّ الأخطاءَ التي ارتُكبت، الشرَّ الذي لم يُتجنَّب، لم يكن مردُّه إلى الشعارات أو البرامج، بل كان من صميم أنفُسنا، كان كامناً في تهافُتِنا، في سطحيةِ حياتِنا، في عاداتنا السياسيّة العامّة، وفي الانحرافات التي كنّا نشارك فيها من حيث لا ندري. كانت

الشعارات والبرامج برّانيّةً، ميتةً، مفرطةً في كثرتِها، فلم نعد نعيشها بشغفٍ، لم تَعد تهتزّ في كلّ فعلٍ من أفعالنا، ولا في كلّ لحظةٍ من لحظات فكرنا. لا معنى لتغيير الشعارات، نحن من يجب أن يتغيّر. إنّ نمط فعلنا هو ما يجب أن يتغيّر. لقد سُقينا، نحن أبناء هذا العصر، بَتربيةٍ إصلاحيّةٍ أجهزَت على الفكر، طمسَت التّفكير، وجعلت من كلّ حكمٍ ظرفيٍّ وطارئٍ بديلًا عن فكرٍ أبديّ، فكرٍ يتجدّد باستمرار رغم ثباته الظاهري. نحن ثوريّون في الفعل، لكنّنا نبقى إصلاحيّين في الفكر: نُحسن الفعلَ، لكنّنا نسيء التفكير. نسير مدفوعين بالحدس أكثر من اعتماد التفكير المنهجي؛ وهذا ما يولّد قلقًا دائمًا، وخيبةً لا تهدأ: نحن بالأحرى أمزجةٌ، لا سِماتٌ. لا نعرف أبدًا ما سيفعله رفاقنا غدًا؛ لقد فقدنا عادة التفكير الملموس، ولهذا نعجزُ عن تحديد ما ينبغي أن نفعلَه غدًا؛ وإن عرفنا ما نفعلُه غداً، فلا نعرفُ ما يفعله غيرُنا، رفاقُنا في النضال، أولئك الذين ينبغي أن ننسّق جهودنا وجهودَهم.

إنّ في الحياة المعقّدة التي تحكم الحركةَ البروليتارية عضواً مفقوداً، عضواً نشعر بغيابه؛ عضواً ينبغي أن يكون حاضراً، إلى جانب الجريدة، والتنظيمات الاقتصادية، والحزب السياسي، ألا وهو هيئةٌ رقابيةٌ نزيهة، تشكّل الخميرة الدائمة للحياة الجديدة، وللبحث الجديد، هيئةٌ قادرةٌ على الإسهام، على التعمّق، على تنسيق النقاشات، بعيدًا عن الضرورات السياسيّة والاقتصاديّة الظرفيّة.

على امتداد هذه القراءات، وعبر الحاجات التي أستشعرُها، ويستشعِرها معي آخرونَ كُثُر، يتشكّل شيئًا فشيئًا مسارٌ جديد، وبمساعدةِ الرّفاق ذوي النيّة الطيّبة، سنلتمِسُ حلّاً، ويتّضح لنا الدّرب الذي يجب أن نسلكه.

٢٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧

كيف تتغيّر اللّغة
(مصائرُ الكلمات)

كما تَخرُج قطرةُ حبرٍ، خرجَت من قلمنا، لاشعوريًا، تلك الكلمة: المُستسلِم panciafichista (آكل التين الجبان[1]). إنها كلمةٌ قديمة، لم تعد اليوم على الموضة، وحلّت محلّها كلماتٌ أخرى «أشهى في الفم»: من قبيل انهزاميّ، أو كاپوريتّيستا caporettista (منسوب إلى هزيمة كاپوريتّو[2])، وغيرها من الكلمات التي تنتمي

---

(١) بانشيافيشيستا (panciafichista): نعتٌ قدحيٌّ أُلّف تهكّمًا من كلمة pacifista (مسالم)، عبر تركيبها مع عبارة serbare la pancia per i fichi (حرفيًا: الاحتفاظ بالبطن لأجل التين)، وهي تعبير عاميّ إيطالي معناه تجنّب الخطر بجبن، والحفاظ على الذات بأي ثمن. استُعملت الكلمة خلال الحرب العالمية الأولى للنيل من المناهضين لدخول إيطاليا الحرب، ووصمهم بالتراخي والأنانية والجبن، وتحولت إلى وصفٍ ساخرٍ لأيّ موقف مسالم أو لا مبالٍ بالاندفاع القومي.

(٢) هزيمة كابوريتّو (Caporetto): انهيار كبير للجيش الإيطاليّ في أكتوبر ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى، إثر هجوم مباغت من القوات النمساوية-الألمانية. أدّت إلى تراجع الجيش إلى نهر بيافي، وسقوط مئات الآلاف من الجنود في الأسر، وأصبحت رمزًا للمهانة الوطنية. استُغلّت هذه الهزيمة في الدعاية القومية لتأجيج العداء ضدّ المسالمين، الذين وُصفوا باحتقار بـpanciafichisti، أي «الجبناء الحريصين على كروشهم للتين»، في تعبير ساخر عن التخاذل.

إلى السياقِ نفسِه. أمّا الكلمة الأولى فلم تعد مستعملةً، لأنّ ذهنيةً [ملازمةً لها] قد اختفت، أو بالأحرى، حَوّلت تلك الذهنيّةُ بؤرةَ خطئِها. كان يُظَنّ أنّ قرار الحرب ينبغي أن يُتّخذ كما تفعل قبيلةٌ همجيّة: بضربات رماح تَدقّ الأرضَ، وبصخبِ جنودٍ متعطّشين للقتل والمعارك. ومن كان يرفض أن يضرب برمحه على الأرض، أو أن يُنشد ضمن جوقة السمفونيّة الفوضويّة التي يشكّلُها الصراخُ الجماعيُّ، لم يكن يُعدّ سوى جبانٍ يتوق إلى أكل التين، ويوفّر بطنَه لالتهامه.

إنّ الذهنيّة «الديمقراطيّةَ»[1] و«الثوريّةَ الزائفةَ» كانت تضرب صفحاً عن فكرة الدّولة: فلم تكن ترى في البلاد سوى أفرادٍ معزولين، وكانت تُفتّت وحدةَ الدّولة البرجوازيّة، -نقصد الوحدةَ الاقتصاديّة-الاجتماعيّة-، إلى ذرّاتٍ من الإرادات العفويّة التي يُفترَض أنّها تشكّل «الشّعب»، ذلك الشّعبُ السخيُّ الذي يضرب الرمحَ في الأرض ويُطلق صيحات الحرب. وقد أثبتت الدّولة أنّها وحدها مَن يقرّر أمرَ الحرب، وأنّها تخوض الحرب بما يتّفق مع منطقها الخاصّ: لقد امتصّت كلّ شيء وابتلعت الجميع، ولم تعد ترى خصومًا لها سوى أولئك الذين يرفضون طبيعة الدّولة كما هي اليوم، ويرفضون المنطق الذي تتصرّف وفقَه. وهكذا اندثرت كلمة **panciafichisti** (آكلو التين الجبناء)، تلك الكلمة الديمقراطيّة النشأة، المنبثقة من ذهنيّةٍ غير ناضجة، ذهنيّةٍ لا تعرف شيئًا عن

(١) تتّخذ كلمة «ديموقراطيّ» في هذا المقال معانٍ كثيرةً، لاسيما معنى «شعبيّ».

الجوهر الحقيقيّ للمؤسّسات التي أوكِل إليها حلّ المعضلات الإيديولوجية التي كانت تزعجها. كان ثمّة كثيرٌ من «آكلي التّين»، وما زال بعضهم اليوم ضمن مَن يستعملون جهاز الدّولة، ويحمون به جلودَهم.

ثمّة كلمة أخرى أيضًا من أصل «ديمقراطي»، شهِدَت مسارًا غريبًا: **مجنون الحرب guerrafondaio** (مولع بالحرب). كانت، في الأصل، تعني تمامًا ما صرنا نقصده اليوم بتعبير jusqu'au-boutiste[1] (المتطرّف حتى النهاية). وقد ظهرت هذه الكلمة إبّان الحرب في الحبشة، وكانت تُستعمَل إشارةً إلى المتطرّفين **oltranzisti** (غلاة المتشدّدين) آنذاك، أولئك الذين كانت تُعارضهم ديمقراطية لومبارديا (صحيفة سيكولو) وأحزاب المعارضة. أما اليوم، فقد انتقلت هذه الأحزاب من المعارضة إلى الحكومة، فلم تعد الحرب غريبة عن برامجها. ومع هذا التحوّل البطيء، بدأت كلمة **guerrafondaio** (مولع بالحرب) تكتسب معنى جديدًا، يمتدّ من «ذي النزعة العسكريّة» إلى «داعية الحرب». لقد أقامت الذهنيّة «الذرائعيّة» الديمقراطيّة فوارقَ بين حربٍ وحرب: بين الحرب الدفاعيّة والهجوميّة، بين

---

(١) «jusqu'au-boutiste»: مصطلح فرنسي يعني حرفيًا «المُصرّ على الذهاب حتى النهاية»، ويُطلق غالبًا على من يتبنون مواقف متطرّفة أو راديكالية، خاصة في سياق الحروب أو الأزمات. خلال الحرب العالمية الأولى، استُخدم لوصف أنصار الحرب الشاملة الذين رفضوا أيّ تسوية أو هدنة، وأصرّوا على استمرار القتال حتى النّصر الكامل، مهما كانت التكاليف البشرية. يُستخدم أيضًا اليوم بصفة نقدية للإشارة إلى التعنّت السياسي أو الإيديولوجي.

الحرب «الديمقراطيّة» والحرب «الإمبرياليّة»، لكنّها لم تنجح في فهم الحرب بوصفها وظيفةً من وظائف الدّولة، وظيفةً من وظائف تنظيم الرأسماليّة الاقتصاديّة والسياسيّة. وهكذا ألفينا أنفسَنا أمام كلماتٍ تغيّر معناها، واضطررنا إلى اختراع كلماتٍ جديدة، أو، بالأحرى، إلى تكييف كلماتٍ فرنسيّة: oltranzista (المتطرّف المتشدّد)، وesterministi (الاستئصاليّون، الإفنائيون). والحالُ أنّه كان حريّاً بنا استعمال كلمة guerrafondaio (مولع بالحرب) للدلالة على من يريد الحرب حتى النهاية.

هكذا تتأقلم الكلمات مع الواقع الإيديولوجي للعصور؛ تتشكّل وتتحوّل مع تحوّلات العادات (السيّئة) للناس. فالذهنيّة «الديمقراطيّة»، التي تشبه غازًا آسناً في الجسد، لا تقوى حّتى على أن تثبِّت في الكلماتِ معنىً صلبًا ومكتملًا.

كان الديمقراطيّ في زمن الحروب الأفريقية panciafichista (آكل تين)؛ وصار اليوم jusqu'au-boutiste (متطرّفًا حتى النهاية)، وما يزال يحاول، عبثًا، أن يُنسيَ الكلماتِ، على أمل أن تُنسى معها الأشياء.

١٠ فبراير/ شباط ١٩١٨

حين نعيد اليوم قراءة مقالات غرامشي القصيرة، التي كُتبت في لحظةٍ هائجة بين سنتي ١٩١٦ و١٩١٨، لا نعود إليها بوصفها آثارًا لنضالٍ ماضٍ، بل بوصفها محاولاتٍ شاقّة للتفكير داخل الزمن، لفهم الكيفية التي يُصنَع بها الواقعُ، ويُعاد إنتاجه يومياً، ولطرح سؤالٍ خطير: لماذا نرضى بهذا الواقع؟ ومن الذي حدّد القاموس، ووزّع الأدوار، وقرّر من يتكلّم باسمِ من؟

في هذا الكتاب لا نصاحبُ غرامشي السّجن، بل غرامشي التكوين، غرامشي الذي لم يصمت بعدُ كي يكتب دفاترَ تأمّلاته، بل ما يزال يكتب وسط الضجيج، وسط الانكسارات، وسط شعورٍ شبه يوميّ بالفشل، ويفعل ذلك بلغةٍ لا تتعالى على اللّغة، بل تحاول أن تُمسك بالشيء في لحظة ولادتِه، أو لحظة انفجاره. وإن كان قارئ الكتاب لا يعدم أن يصيد فيه بعض التّنظيرات المفيدة، إلّا أنّ غرامشي أساساً هنا ليس بالمُنظِّرَ، بل المنقّب؛ فهو لا يبحث عن الذهب، بل عن اسمٍ جديدٍ لما يراه. اسمٍ لا يكون مهادنًا، ولا متواطئًا، ولا مكرورًا. ولهذا، فإنّ كُرهه للّامبالاة ليس نَفَسًا أخلاقيًا موتورًا فحسب، بل هو الشرط الضروريّ لقيام أيّ سياسة جدّية. ذلك أنّ ما يُعطّل السياسة، في نهاية المطاف، ليس غياب المشروع، بل غياب الحُكم، غياب القدرة على التمييز، وغياب الجرأة على تسمية الأشياء بأسمائها.

محمّد آيت حنّا، مترجم وأكاديمي مغربي

أنطونيو غرامشي

أكره اللامبالين

9 789921 775952

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com